مجلة البيان – العدد 59 ، رجب 1413هـ / يناير 1993م

كلمة صغيرة

بعض الناس يهجمون على ما لا يحـسـنـون، فيخرج عملهم غير ناضج وغير مقنع، وذلـك أنهم يرون بعض الناس يكتبون، فتدفعهم الغيرة على الكتابة ، دون أن يأخذوا لهذا الأمر عدته . وعدة الكتابة الفكرة والأسلوب، فالـفـكـرة ينبغي أن تكـون واضحة محددة في نفس صاحبها أولاً، ثـم بـعـد ذلـك يأتي الـحــرص عـلـى نقـلـها إلى الآخرين، وهذا لا يكون إلا بامتلاك الأسلوب الواضح المؤثر الذي هو خليط من الموهـبة والتعلم والقراءة الكثيرة .

إننا نطمح أن يكون كل ما ينشر في »البيان« قد استجمع هــذه الحقـائـق البسـيـطـة والمهمة ، وندرك أيضاً أن هناك مسافة بين واقعنا والطموح . والأمل في قراء البيان وجـمـهـورها كبير والحمد لله .

المحرر

الافتتاحية

الحق والقوة

رئيس التحرير

»الهندوس يهدمون المسجد البابري« ...
»الصومال والاحتلال الأمريكي« ...
»البوسنة تحترق« ...

أخبار يرتاع لها قلب المسلم وتأخذ بمجامع قلبه وعقله، وتـجـعـلـه يـفـكـر طـويـلاً بـهـذه الأحداث، ولماذا بلغ الهوان بالمسلمين إلى هذا الحد ؟ وما هي أسباب هذا الضعف المزري؟ هـل هـانوا عـلـى ربهم فهانوا على أعداء الله حتى أصبحوا يسامون الذل والخسف في كل مكان ، وحتى طمح بهم عباد البقر وعباد الصليب ؟

إن قـيـام الطائفة الهندوسية المتعصبة بهدم المسجد البابري في شمال الـهـنــد، واحـتــلال الصومــال مـن قـبـل (المـارينز) تحت اسم المساعدات الإنسانية و(عودة الأمل) وما يفعل في البوسنة من تدمير وتهـجـيـر وقـتـل وتحريق..؛ كل هذا إنما يدل على شيء واحد وهو أن المسلمين في هذه الأزمان الأخيرة ليس لهم وزن يحسب حسابه ، ولا يكيل بمكيالهم أحد، وأنهم لا يأمرون ولا يُستأمرون ، ولا يشهدون ولا يُستشهدون .

إن ما حدث في الهند لا يقتصر على هـدم المسجد البابري وبناء معبد هندوسي مكانه ، بل إن الأمر يتعدى ذلك ، إنها بداية لـطـمـس الهوية الإسلامية

وبداية (للتطهير الديني) كما يفعل إخوانهم الصرب ، فهؤلاء الهـنـدوس قد أكل الحقد أكبادهم من يوم أن فتح بلادهم المجاهد الكبير محمود الغزنوي واستمر حكم المسلمين لهم عدة قرون، حتى جاء الاستعمار الإنكليزي وساعد الهندوس على إزاحة المسلمين عن الحكم، هـؤلاء الهـنـادكــة استضعفوا المسلمين عندما رأوهم كالأيتام على مائدة اللئام ، فهم يذبحون في البوسنة ولا مــن مغيث يمنع عدوان الصرب عنهم ومشروعهم لهدم المسجد قديم ولكنهم تجرأوا في هذه الأيام .

وإن مجيء أمريـكـا باسم الإغاثة إن هو إلا احتلال مبطن للصومال والهيمنة على الـقــرن الأفريقي وإقامة دولة علمانية في الصومال، بـل إن أهـدافـهــا لـتـشـمـل المنطقة العربـيـة والإسلامية بأسرها . وقد استنكر بعض الساسة وبعض الصحف - ولو ظـاهــرياً - هــذا الأسلوب المفضوح من استخدام الإغاثة وسيلة للاحتلال .

لا نريد أن نضع اللوم كله على أعداء الإسلام ونترك أنفسنا ، فبرغم تعصب الهندوس إلا أن الـلـوم الأكبر يقع على عاتق المسلمين هناك ، وهم ليسوا في قلة من العدد ، فلماذا لم يأخذوا بأسـبـاب القــوة المادية والمعنوية ، وأولها : بث الوعي الديني بين صفوف عامة المسلمين، والبعد بهم عن الخرافات والبدع، وإحياء الشخصية الإسلامية المتميزة، والترقي بالعلم النافع الذي يزيدهم قوة إضافة إلى قوة الإسلام الذاتية . وما أحرى مسلمي الـهـنـد بقول الشاعر العربي :

لا أتقي حسك الضغائن بِالرُّقَى فعلَ الذليل ولو بقيتُ وحيداً
لكن أجردُ للضغائن مـثـلَـهـــا حتى تمـوتَ وللحُقودِ حقودا

إن ما جرى ويجري في الهند والبوسنة وغيرها من بلاد المسلمين إن هو إلا نتيجة الابتعاد عن الله ، وعن معرفة سننه في الاجتماع البشري ، وسننه في التغيير والارتقاء وفي الصراع والتمكين في الأرض ، وأن الحق لا بد له من قوة تحميه حتى تكون كلمة الله هي العليا ، وحتى لا تكون يد المسلم دائماً هي السفلى .

ومن أعظم سننه في الصراع أن يتخلص المسلمون من الاستبداد الذي جثم على صدورهم أحقاباً فأضاع شخصيتهم ، وأضاع علمهم وثروتهم وأخلاقهم .

ومن أسباب التغيير الدعوة إلى الوحدة والائتلاف الذي يعد من أعظم نعم الله ((واذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إخْوَاناً)) [آل عمران 103] وإن من أشد الأضرار على المسلمين تفرقهم واختلافهم على النقير والقطمير ، وما ذلك إلا دليل على عدم إحاطتهم بمقاصد الإسلام ، وعلى ضعف عقولهم ومعرفة قاعدة المصالح والمفاسد .

وما يقع الآن في أفغانستان هو مصداق لأضرار التفرق بين فصائل المجاهدين الذين استعان بعضهم بالمرتزقة والأحزاب الباطنية لقتال إخوانهم وصدهم عن

المشاركة في حكم أفغانستان حكماً إسلامياً ، ودارت الدائرة فإذا بهؤلاء المرتزقة يقاتلون الذين استعانوا بهم ، فهم كما قال الشاعر :

ومن يجعل الضرغام بازاً لصيـــده تصيـده الضـرغـام فيما تصيدا

إن الأمم لا تستيقظ إلا بقيام نفر منها يدعونها إلى الوحدة والاعـتـصـام بالـعـروة الوثقى ، وينفخون فيها روح العزيمة ، ويصلحون منها ما أفسدته روح التخلف ، وما أفسده تجار الدين والمفتونون بالدنيا .

إن ما جرى ويجري في ديار المسلمين إنما يدل على أنه ما لم تقم للمسلمين دولــة تحميهم وتدافع عنهم ، وتطالب بحقوقهم ، فسيبقون مستضعفين في الأرض . ولعلّ هذه التحديات الكبيرة التي تواجههم في هذه الأيام تكون باعثاً على استنهاض الهمم واستنفار الطـاقـات وتـفـهـم مــا يدور حولهم . فإن سنة الله في الصراع بين الأمم من سنن الله الكونية ، وقد يُبتلى المسلمون بالهنادكة وأمثالهم حتى يخرجوا عن ضعفهم وركودهم وشتاتهم . وإن أزمة المسلمين أكبر من أن تحل بحماسة مؤقتة ، إن الأمر جد لا لهو فيه ، وإلا فهو الذبح .

الاستطراد عند ابن تيمية

عبد القادر حامد

أكثر من ترجم لابن تيمية أو كـتـب عـنـه تـعـرض للحديث عن مؤلفاته وخصائص أسلوبه ومنهج تفكيره ، لذلك لن أعـيد ما قالوه ، وإنمــا أشير إلى قضية الاستطراد والتشعب التي اتصفت بها كتاباته التي وصلتنا، وإلـى نكـتـة لحظتها من خلال تكرار النظر فيما ترك لنا من مؤلفات وكتابات .

أما الاستطراد ، فنعم، هذه صفة واضحة في مؤلفاته، اشتكى منها محبوه وشانئوه ، وليس الاعتذار لشانئيه عن استطراده برادهم عن هـذا الشنآن، وصارفهم عــن هــذا الـتحـامــل، ومعـيـدهـم مــن دائـرة الفـجـور في الخصومة إلى دائرة الإنصاف . وذلك لأن منشأ بغضهم وتحاملهم أمور أخرى غير صـعـوبــة التذوق وعسر الهضم ؛ فقد تقدم طعاماً أو دواء لمن لا يتذوقه ولم يعتده ، ولكنه مؤمن بـفـائدتــه ، ومقتنع بقيمته . وليس هذا حال كارهي ابن تيمية والمتحاملين عليه ، فأكثر مواقف هــؤلاء العدوانية مبنية على الوصف والتقليد ، أو الهوى . وهذا الهوى الغالب هو الذي يدفــع رؤوسهم إلى تحذير أتباعهم من قراءة آثاره ، والاقتراب من حِماه ، والتواصي بمقاطعة من يفعل ذلك ممن يخرج عن عبودية الفكر وأسر الشعوذة .

يستطرد ابن تيمية نعم ، ويتعب قارئه نعم ، ويأخذ به - بجد وهمة عجيبين - في شعاب ووهــاد بكــر لم تطرق من قبل ، ويقوده - صاحباً أميناً وحارساً يقظاً - إلى حيث الدهشة التي يُعَبَّر عنها أحياناً كثيرة بإيقاف النَّفَس برهة ، ووضع الكتاب جانباً ، وتسريح الفكر وراء خاطر جانبي : كيف اهتدى الرجل

إلى هذه الفكرة ، وكيف سطر قلمه هذه الآبدة ؟! هذا شأنه في أغلب ما خلف من كتابات ، كما كان شأنه في دروسه التي يصفها شاهدُ عيانٍ من تلاميذه فيقول :
"وأما ذكر دروسه ؛ فقد كنت - في حال إقامتي بدمشق - لا أُفَوِّتُها . وكان لا يهيئ شيئاً من العلم ليُلقِيَهُ ويورِدَه ؛ بل يجلسُ - بعد أن يصلي ركعتين - فيحمدُ الله ويثني عليه ، ويصلي على رسوله - صلى الله عليه وسلم - على صفة مستحسنة مستعذبة ، لم أسمعها من غيره - ثم يـشــرع ... فيفـتح الله عليه إيرادَ علومٍ ، وغوامضَ ، ولطائفَ ، ودقائقَ ، وفنونٍ ، ونقولٍ ، واستدلالات بآياتٍ ، وأحاديثَ ، وأقوالِ العلماء ، ونصر بعضها وتبيين صحته ، أو تزييف بعضها وإيـضـاح حجته ، واستشهاد بأشعار العرب ، وربما ذكر اسم ناظمها... وهو - مع ذلك - يجري كما يجري السيل ، ويَفيض كما يَفِيضُ البحر، ويصير - منذ يتكلم ؛ إلى أن يفرغ - كالغائب عن الحاضرين ؛ مغمضاً عينيه، وذلك كله مع عدم فكر فيه ، أو رويةٍ ، من غير تَعَجْرُفٍ ، ولا توقفٍ ، ولا لَحْنٍ ، بل فـيـضٌ إلهي ، حتى يَبْهَرَ كلَّ سامع وناظر ، فلا يزال كذلك إلى أن يَصْمُتَ . وكنت أراه - حيـنـئـذ - كأنه قد صار بحضرة من يَشْغَلُهُ عن غيره ، ويقعُ عليه - إذ ذاك - من المهابةِ ما يُرْعِـد القلوبَ ، ويحيّرُ الأبصارَ والعقول ."(1) .
وأمر آخر ينبغي أن لا يُغْفَلَ عنه - عند النظر إلى استطراد ابن تيمية - وهو أنه - في كل ما كتب - كان صاحب منهج ، ومن منهجه انطلاقه من مجتمعه وظروفه، وتفاعله الكامل مع مشاكل المسلمين في عصره ، فقد اصطبغت نفسه وقلبه بالإسلام عقيدةً وسلوكاً من جهة ، واكتوى بما شاهد وعرف من الأمراض التي حلت بالعالم الإسلامي ، ونـفـذ - ببصيرته الثاقبة - إلى الأسباب الحقيقية التي آلت بالمسلمين إلى تلك الحال ، فمثله كـمـثـل طبيب حَذِق علم الطب ، وهو- مع هذا - صاحب قلب مفعم بالرحمة، وشخصية تفيض غـيــرة وحرصاً على مرضاه، إذا عالج مريضاً يصف له أكثر الأدوية فائدة، وأقرب طرق الاستعمال مأخذاً . مع التحذير الشديد من أسباب المرض ، والشرح المفصل لكل الظروف والمداخل التي يمكن أن تتسرب منها الجراثيم . فيجمع بين الطب والوقائي والطب العلاجي ، ولا يقتصر على كتابة الوصفة ببرود غير المتفاعل وغير المخلص . ولعله - هو نفسه - خير من يبين لنا طريقته في البحث والكتابة حيث يبين لنا الأدلة وطريقة عرضها ، وإلى أي طريقة يميل فيقول :
"ومما ينبغي أن يعرف أن الأدلة نوعان :
نوع : يدل على مجرد العلم بالمدلول عليه .
ونوع : يحض مع ذلك على الرغبة فيه ، أو الرهبة منه .
فالأول : من جنس الخبر المجرد .

والثاني من جنس الحث، والطالب ، والأمر ، والإرادة ، والأمر بالشيء ، والنهي عنه.
وذلك كمن علم أن في المكان الفلاني جمادات وحيوانات ، أو نبات ليس له فيها غرض ؛ لا حب ، ولا بغض، فليس هو بمنزلة من علم أن في المكان الفلاني صديقه ، وولده ، ومحبوبه ، وما له ، وأهله ، وأهل دينه . وفي المكان الفلاني عدوه ، ومبغضه ، ومن يقطع عليه الطريق ، ويقتله ، ويأخذ ماله .
فكذلك دلائل النبوة ، هي - كلها - تدل على صدق النبي ، ثم يعلم ما يخبر به النبي من الأمر ، والنهي ، والوعد ، والوعيد ، لأنه أخبر عن الله بذلك ، وهو صادق فيما يخبر به . فهذا طريق عام . وأما إثبات نبوة الأنبياء - بما فعله بهم وبأتباعم من النجاة ، والسعادة والنصرة ، وحسن العاقبة ، وما جعله لهم من لسان الصدق ، وما فعله بمكذبيه ومخالفيه من الهلاك ، والعذاب وسوء العاقبة ، وإتباعهم اللعنة في الدنيا ، مع عذاب الآخرة - فهذا يدل - مع صدق الأنبياء - على الرغبة في اتباعهم ، والرهبة من مخالفتهم . ففيه :
العلم بصدقهم ، والموعظة للخلق .
والوعظ هو أمر ونهي ، بترغيب وترهيب ، قال تعالى : ((ولَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ وأَشَدَّ تَثْبِيتاً * وإذاً لآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْراً عَظِيماً * ولَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً)) [النساء 66-68]،أي : لو أنهم فعلوا ما يوعظون به ، وما يؤمرون به . وقال: ((يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَداً إن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ)) [النور 17] ، أي ينهاكم الله أن تعودوا لمثله . وهذه الطريقة أكمل وأبلغ في حصول المقصود ، فإنها تفيد : العلم بصدقهم ؛ والرغبة في اتباعهم ، والرهبة من خلافهم . وتفيد : ثبوت صحة الدين الذي دعوا إليه ، وسادة أهله ، وفساد الدين المخالف لدينهم ، وشقاوة أهله"(2)
وواضح من هذا الاقتباس الطويل أنه يفضل النوع الثاني ، وهو طريقة الأنبياء ، وطريقة القرآن الكريم ، مع الوضع في الاعتبار الظروف السياسية والفكرية التي واجهها ابن تيمية ، وتنوع الأخطار التي أصبحت تهدد الإسلام كنظام حياة ، والمسلمين كأناس لهم هويتهم وخصوصيتهم الثقافية ، فالتتار من الشرق ، والصليبيون من الغرب ، والفرق الضالة من القلب ، والبدع الاعتقادية والعبادية تنتشر ، والسياسة الدنيوية تخلف آثارها السلبية - التي يصعب اقتلاعها وعلاجها - وتتسلح بالترغيب والترهيب ، فتُطمِع وتفزع ، أو تمنح وتمنع (3).. كل هذا وأكثر منه كان ماثلاً في عقل ابن تيمية في كل ما كتب تقريباً ، فقضاياه التي اهتم لها ، وصب فيها قوة نفسه ، وحرارة قلمه كلها تدور حول : ما الذي انتقل بالمسلمين من حالة المد إلى حالة الجذر ، وما الذي يخرجهم من صعوبات اللحظة الحاضرة إلى أفق أرحب ، ومستقبل أفضل ؟ يستطرد ، لكنه لا ينظر إلى إمتاع قارئه ، وهدهدته والتسرية عنه - كما ينحو بعض الكتاب ؛ يحرص على أن يظل قارئه معه مستجمعاً نفسه ، لا يَنِدُّ عنه وعيه لحظة ،

لأن الأمر جد ، لا بد فيه من التشمير وأخذ العدة . وهو ليس من صنف أولئك الذين يعتبرون العلم ترفاً فكرياً ، أو أمراً تكميلياً يزينون به صورهم عند الناس ، ولا من الذين طلبوا اسم لمنصب أو رتبة أو رجاء تزود من الدنيا وتكثر فن الامتيازات وتجمل ، وعندهم من الفراغ ما يجعلهم ينتحون ركناً هادئاً يبعث على التأمل ، بعيداً عن الناس وصخب الحياة ، حولهم المراجع والمصادر ، يرتبون ويجمِّلون ويصقلون ويعيدون النظر فيما يكتبون ويؤلفون - شأن أصحاب الحوليات - لا ، لم تكن حياة ابن تيمية العاصفة تسمح له بهذا ، ولم يدعه خصومه لمثل هذا الهدوء والاستقرار الذي يتطلع إليه الكثير من أهل العلم والفكر ، يتصدى للمشكلة ، فيبدأ بتحليلها ، فتنفجر المعلومات بين يديه . أتخيله كحامل فأساً يريد أن يحفر في الأرض باحثاً عن الماء ، يضرب ضربة أو ضربتين فتنفجر الأرض تحت قدميه بالماء الثر الغزير ، فيبدأ بالتقنية(4) له حتى يوجهه الوجهة التي يستفاد منه فيها ، فيزداد الماء ويطغى حتى يغلب أطراف القناة الأولى ، فيتوزع جهد الشيخ بين تقوية ضفاف تلك القناة والبدء في قناة ثانية تخفف الضغط عن الأولى ، فيصيب الثانية ما أصاب الأولى ، فيقويها ويفتح ثالثة ورابعة.. ثم يعود ليذكرك بأن عليه - بعد أن قوى الثانية والثالثة - أن لا ينسى أنه بدأ بالأولى وغلبه انفجار الماء عن إكمالها إلى غايتها ، فيمشي معها خطوة خطوة يغالبه الماء عليها فيكاد يغلبه ، فيفتح له مسرباً يخفف من ضغطه وعنفوانه ، ثم يهيمن أخيراً على التيار ، ويصل بك إلى الغاية بعد أن كانت النية أن يكشف نبعاً ويُجري قناة ؛ فإذا بالنبع يقذف بالسيل الدُّفَّاع (5) ، لا تكفيه قناة واحدة ما لم تسيِّرْ عن يمينها وشمالها أقنية تبث الحياة في الأرض التي كانت هامدة منذ قليل ! وإذا بها تستحيل غرْباً، ويَرْوَى الناس ، ويضربون بِعَطَن (6) .

أمـــا النكتة التي لحظتها فهي أن كثيراً مما قاله ابن تيمية كتبه تلاميذه ، إما في دروسه الـعـامــــة، وإما في مناظراته الكثيرة، ولا بد من وجود فرق واضح بين الأسلوب المرتجل، والآخر الذي يأتي نتيجة الانفراد للتأليف والتهيؤ له . ونستطيع أن نميز هذين الأسلوبين إذا نحـن درسنا مؤلفات ابن تيمية دراسة داخلية ، وحللنا السياق في كلٍ ، وألقينا الضوء على الظرف المحيط بكل أثر من آثاره. وســنـلـحـظ أن درجــــة الانفعال ترتفع وتشتد في الموضوعات التي كان يرتجلها إجابة على فتوى أو مسألـة، أو اشــتـراكـــاً في مناظرة على مسمع من الناس ، وقد يصل الانفعال إلى درجة الحدة التي أخذت عليه واعتبرها أعداؤه مدخلاً يدخلون منها وبها إلى القدح فيه والتنفير منه .

سيبدو لنا ابن تيمية في حالتين:

الـحـالــة الأولى وكأنه يتكلم قائماً مندفعاً فيما هو فيه من توضيح ورد وحض وتحذير ، أو ماشياً عجلاً حوله تلاميذه ، كل يريد لو ظفر منه بإجابة على ما

عنده ، فيحاول أن يلبي رغبة الجـمـيـع، فيجيب بأجوبة قصيرة لكسب الوقت ، ولكنها كافية ووافية بالمقام .
والحالة الثانية قد فرغ لنفسه، واستغرقته قضية، فـبــدأ بالـكـتابة فيها ، محدداً ومحرراً ومستقـصـيـاً، ومستبعداً مواطن الاشتباه والاشتباك، ومحللاً ومعقباً على أسباب ذلك، وهو في كــل ذلـك لا يخـطــو خطوة بدون دليل، بل أدلة، وينحدر بعد ذلك انحدار السيل - بوصفه الذي سقناه عن أحـــد تلاميذه آنفاً - تصادفه أرض مستوية فيفيض ويتشعب ، ثم يعود فيستجمع قوته حين تعترضه مضايق وحزون ، فمنخفضات وانهدامات ، هادراً يرمي بالجلاميد ويقذف بالزبد ، حتى يصل إلى قراره .

الهوامش :

1- الأعلام العلية للبزار 27-28 .
2- الجواب الصحيح 4/274 .
3- كما قال سيء الذكر أنور السادات .
4- التقنية : حفر القناة .
5- الدفَّاع : السيل العظيم الذي يدفع بعضه بعضاً ، قال المعري يصف سفينة نهرية .
سارت فزارت بنا الأنبار سالمةً تُزجي وتُدفَع في موجٍ ودُفَّاعِ
6- تضمين مأخوذ من الحديث رقم 3682 في صحيح البخاري ، فضائل عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- راجع شرحه في فتح الباري 7/19 .

آية من كتاب الله(*)

((شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إلَهَ إلاَّ هُوَ والْمَلائِكَةُ وأُوْلُوا العِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ لا إلَهَ إلاَّ هُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ))

[آل عمران 17 -18]

قال ابن تيمية في تفسير هذه الآية :

- 1 -

أقوال المفسرين في معنى : شهد

قد تنوعت عبارات المفسرين في لفظ (شهد)، فقالت طائفة منهم مجاهد والفراء وأبو عبيدة: أي حكم وقضى .
وقالت طائفة منهم ثعلب والزجاج: أي بينّ .
وقالت طائفة: أي أعلم .
وكذلك قالت طائفة: معنى شهادة الله: الإخبار والإعلام، ومـعـنـى شـهـادة الـمـلائـكــة والمؤمنين: الإقرار .

وعـن ابن عـبـاس أنـه: شهد بنفسه لنفسه قبل أن يخلق الخلق حين كان ، ولم يكن سماء ولا أرض ، ولا بر ولا بحر ، فقال : ((شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ)) .
وكل هذه الأقوال - وما في معناها - صحيحة، وذلك أن الشهادة تتضمن : كلام الشاهد ، وقوله وخبره عما شهد به،وهذا قد يكون،مع أن الشاهد نفسه يتكلم بذلك ويقوله ويذكره، وإن لم يكن معلماً به لغيره ، ولا مخبراً به لسواه (1) . فهذه أولى مراتب الشهادة .
ثم قد يخبره ويعلمه بذلك، فتكون الشهادة إعلاماً لغيره وإخباراً له، ومــن أخـبــر غـيـره بشيء فقد شهد به . سواء كان بلفظ الشهادة أو لم يكن (....).فالشهادة تضمنت مرتبتين:
إحداهما: تكلم الشاهد وقوله ، وذكره لما شهد في نفسه به .
والثانية: إخباره وإعلامه لغيره بما شهد به ، فمن قال من المفسرين : حكم وقضى ؛ فهذا من باب اللازم ، فإن الحكم والقضاء هو إلزام وأمر .(*)
ولكن الـكـلام في دلالة لفظ الشهادة على ذلك ، وذلك أنه إذا شهد أنه لا إله إلا هو ؛ فقد أخبر وبين وأعلم أن ما سواه ليس بإله، فلا يعبد، وأنه وحده الإله الذي يستحق العبادة، وهذا يتضمن الأمر بعبادته؛ والنهي عن عبادة ســواه، فــإن النفي والإثبات فـي مثل هذا يتضمن الأمر والنهي ، كما إذا استقتى شخص شخصاً فقال له قائل : هذا ليس بمفتٍ ؛ هذا هو المفتي ، ففيه : نفي عن استفتاء الأول ؛ وأمر وإرشاد إلى استفتاء الثاني . وكذلك إذا تحاكم إلى غير حاكم ، أو طلب شيئاً من غير ولي الأمر ، فقيل له : ليس هذا حاكماً ، ولا هذا سلطاناً ، هذا هو الحاكم ، وهذا هو السلطان ، فهذا النفي والإثبات يتضمن الأمر والنهي ، وذلك أن الطالب إنما يطلب ممن عنده مراده ومقصوده ، فإذا ظنه شخصاً فقيل له: ليس مرادك عنده وإنما مرادك عند هذا كان أمراً له بطلب مراده عند هذا دون ذاك .
والـعـابدون مقصودهم أن يعبدوا من هو إله يستحق العبادة ، فإذا قيل لهم : كل ما سوى الله لـيـس بإله ؛ إنما الإله هو الله وحده ؛ كان هذا نهياً لهم عن عبادة ما سواه ، وأمراً بعبادته .
وأيضاً ؛ فلو لم يكن هناك طالب للعبادة فلفظ الإله يقتضي أنه يستحق العبادة ، فإذا أخبر أنه هو المستحق للعبادة دون ما سواه كان ذلك أمراً بما يستحقه .
ولـيـس الـمـراد هنا "بالإله" من عبده عابد بلا استحقاق ؛ فإن هذه الآلهة كثيرة ، ولكن تسميتهم آلهــة والخبر عنهم بذلك واتخاذهم معبودين أمر باطل ، كما قال تعالى : ((إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ)) [النجم 23] ، وقال : ((ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الحَقُّ وأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ البَاطِلُ)) [لقمان 30] .

فالآلهة التي جعلها عابدوها آلهة يعبدونها كثيرة ، لكن هي لا تستحق العبادة فليست بآلهة ، كمن جعل غيره شاهداً أو حاكماً أو مفتياً أو أميراً وهو لا يحسن شيئاً من ذلك .
ولا بد لكل إنسان من إله يألهه ويعبده "تعس عبدُ الدينار وعبدُ الدرهم"(2) فإن بعض الناس قد ألّه ذلك محبة وذلاً وتعظيماً .
فإذا شهد الله أنه لا إله إلا هو فقد حكم وقضى بأن لا يعبد إلا إياه .
وأيضاً فلفظ الحكم والقضاء يستعمل في الجمل الخبرية ، فيقال للجمل الخبرية : قضية ، ويقال : قد حكم فيها بثبوت هذا المعنى وانتفاء هذا المعنى ، وكل شاهد ومخبر هو حاكم بهذا الاعتبار ، قد حكم بثبوت ما أثبته ، ونفي ما نفاه حكماً خبرياً ، قد يتضمن حكماً طلبياً .

- 2 -

وشهادة الرب وبيانه وإعلامه يكون بقوله تارة ، وبفعله تارة .
فالقول هو ما أرسل به رسله ، وأنزل به كتبه ، وأوحاه إلى عباده كما قال : ((يُنَزِّلُ المَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لا إلَهَ إلاَّ أَنَا فَاتَّقُونِ)) [النحل 2] إلى غير ذلك من الآيات .
وقد علم بالتواتر والاضطرار أن جميع الرسل أخبروا عن الله أنه شهد ويشهد أن لا إله إلا هو بقوله وكلامه؛ وهذا معلوم من جهة كل من بلغ عنه كلامه، ولهذا قال الله تعالى: ((أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وذِكْرُ مَن قَبْلِي)) [الأنبياء 24] .
وأما شهادته بفعله فهو : ما نصبه من الأدلة الدالة على وحدانيته التي تعلم دلالتها بالعقل ، وإن لم يكن هناك خبر عن الله ، وهذا يستعمل فيه لفظ الشهادة والدلالة والإرشاد ، فإن الدليل يبين المدلول عليه ويظهره ، فهو بمنزلة المخبر به ، الشاهد به ، كما قيل : سل الأرض من فجر أنهارها ، وغرس أشجارها ، وأخرج ثمارها ، وأحيا نباتها ، وأغطش ليلها ، وأوضح نهارها . فإن لم تجبك حواراً ؛ أجابتك اعتباراً .
وهو سبحانه شهد بما جعلها دالة عليه ، فإن دلالتها إنما هي بخلقه لها ، فإذا كانت المخلوقات دالة على أنه لا إله إلا هو سبحانه ، وبين ذلك ، فهو الشاهد المبين بها أنه لا إله إلا هو وهذه الشهادة الفعلية ذكرها طائفة ، قال ابن كيسان : شهد الله - بتدبيره العجيب ، وأموره المحكمة عند خلقه - أنه لا إله إلا هو.

- 3 -

وقوله : ((قائماً بالقسط)) هو نصب على الحال ، وفيه وجهان :
قيل : هو حال من (شهد): أي شهد قائماً بالقسط .
وقيل : (حال) من (هو) أي : لا إله إلا هو قائماً بالقسط ، كما يقال : لا إله إلا هو وحده . وكلا المعنيين صحيح .

وقوله : ((قَائِماً بِالْقِسْطِ)) يجوز أن يعمل فيه كلا العاملين على مذهب الكوفيين ، في أن المعمول الواحد قد يعمل فيه عاملان ، كما قالوا في قوله : ((هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ)) ، و ((آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً)) ، و ((عَنِ اليَمِينِ وعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ)) ونحو ذلك .
وسيبويه وأصحابه يجعلون لكل عامل معمولاً ، ويقولون حذف أحدهما لدلالة الآخر عليه . وقول الكوفيين أرجح .
وعلى المذهبين فقوله : ((بِالْقِسْطِ)) يُخرَّج على هذا ، إما كونه يشهد قائماً بالقسط ، فإن القائم بالقسط هو القائم بالعدل ، كما في قوله ((كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ)) [النساء 135] ، فالقيام بالقسط يكون في القول ، وهو القول بالعدل ، ويكون في الفعل ، فإذا قيل : شهد (قائماً بالقسط) ، أي : متكلماً بالعدل ، مخبراً به ، آمراً به ؛ كان هذا تحقيقاً لكون الشهادة شهادة عدل وقسط ، وهي أعدل من كل شهادة ، كما أن الشرك أظلم من كل ظلم ، وهذه الشهادة أعظم الشهادات .
ولفظ القيام بالقسط كما يتناول القول يتناول العمل ، فيكون التقدير : يشهد وهو قائل بالقسط عامل به لا بالظلم ، فإن هذه الشهادة تضمنت قولاً وعملاً ، فإنها تضمنت أنه هو الذي يستحق العبادة وحده فيعبد ، وأن غيره لا يستحق العبادة ، وأن الذين عبدوه وحده هم المفلحون السعداء ، وأن المشركين به في النار ، فإذا شهد قائماً بالعدل المتضمن جزاء المخلصين بالجنة ، وجزاء المشركين بالنار ؛ كان هذا من تمام تحقيق موجب هذه الشهادة ، وكان قوله : قائماً بالقسط تنبيها على جزاء المخلصين والمشركين ، كما في قوله : ((أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ)) [الرعد 33] .
قال طائفة من المفسرين منهم البغوي نظم الآية : (شهد الله قائماً بالقسط) ومعنى قوله : قائماً بالقسط أي بتدبير الخلق ، كما يقال : فلان قائم بأمر فلان ، أي يدبره ويتعاهد أسبابه ، وقائم بحق فلان ، أي مُجازٍ له ، فالله تعالى مدبر رزاق مجاز بالأعمال .
وإذا اعتبر القسط في الإلهية كان المعنى : "لا إله إلا هو قائماً بالقسط" أي هو وحده الإله ، قائماً بالقسط ، فيكون وحده مستحقاً للعبادة ، مع كونه قائماً بالقسط ، كما يقال : أشهد أن لا إله إلا الله واحداً أحداً صمداً ، وهذا الوجه أرجح ، فإنه يتضمن أن الملائكة وأولي العلم يشهدون له ، على أنه لا إله إلا هو ، وأنه قائم بالقسط .
والوجه الأول لا يدل على هذا ، ولأن كونه قائماً بالقسط كما شهد به أبلغ من كونه حال الشاهد ، وقيامه بالقسط يتضمن أن يقول الصدق ، ويعمل بالعدل ، كما قال : ((وتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقاً وعَدْلاً)) [الأنعام 115] ، وقال هود : ((إنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ))
[هود 56] ، فأخبر أن الله على صراط مستقيم وهو العدل الذي لا عوج فيه .

والاستقامة والاعتدال متلازمان ، فمن كان قوله وعمله بالقسط كان مستقيماً ، ومن كان قوله وعمله مستقيماً كان قائماً بالقسط ، ولهذا أمرنا الله سبحانه أن نسأله أن يهدينا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعم عليهم من : النبيين ، والصديقين ، والشهداء الصالحين . صراطهم هو العدل والميزان ، ليقوم الناس بالقسط ، والصراط المستقيم هو العمل بطاعته وترك معاصيه ، فالمعاصي كلها ظلم مناقض للعدل ، مخالف للقيام بالقسط والعدل .
ثم قال تعالى : ((لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ)) ، ذكر عن جعفر بن محمد أنه قال : الأولى وصف وتوحيد ، والثانية رسم وتعليم . أي قوله : ((لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ)). . معنى الأولى هو ذِكْرُ أن الله شهد بها ، فقال : ((شهد أَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ)) والتالي للقرآن إنما يذكر أن الله شهد بها هو والملائكة وأولو العلم ، وليس في ذلك شهادة من التالي نفسه بها ، فذكرها الله مجردة ليقولها التالي . فيكون التالي قد شهد بها أنه لا إله إلا هو . فالأولى خبر عن الله بالتوحيد لنفسه ، وهذه (3) خبر عن الله بالتوحيد .
وختمها بقوله : ((العَزِيزُ الحَكِيمُ)) والعزة تتضمن القدرة والشدة والامتناع والغلبة . تقول العرب : عزَّ يعَزُّ بفتح العين إذا صلُب . وعزَّ يعِزُّ بكسرها إذا امتنع. وعزَّ يعُزُّ بضمها إذا غلب . فهو سبحانه في نفسه قوي متين ، وهو منيع لا ينال . وهو غالب لا يغلب .
والحكيم يتضمن : حكمه وعلمه وحكمته فيما يقوله ويفعله ، فإذا أمر بأمر كان حسناً ، وإذا أخبر بخبر كان صادقاً ، وإذا أراد خلق شيء كان صواباً ، فهو حكيم في إرادته وأفعاله وأقواله .

- 4-

الأصول التي تضمنتها الآية :

وقد تضمنت هذه الآية ثلاثة أصول : شهادة أن لا إله إلا الله ، وأنه قائم بالقسط ، وأنه العزيز الحكيم. فتضمنت : وحدانيته المنافية للشرك ، وعدله المنافي للظلم ، وعزته وحكمته المنافية للذل والسفه ، وتنزيهه عن الشرك والظلم والسفه ، ففيها إثبات التوحيد ، وإثبات العدل ، وإثبات الحكمة ، وإثبات القدرة .
[استطراد في الرد على : المعتزلة ، والجهمية ، والجبرية ، ودعاة توحيد الوجود] .

- 5-

وإذا كانت شهادة الله تتضمن بيانه للعباد ، ودلالته لهم ، وتعريفهم بما شهد لنفسه ؛ فلا بد أن يعرفهم أنه شهد ، فإن هذه الشهادة أعظم الشهادات ، وإلا فلو شهد شهادة لم يتمكن من العلم بها لم ينتفع بذلك ، ولم تقم عليهم حجة

بتلك الشهادة - كما أن المخلوق إذا كانت عنده شهادة لم يبينها بل كتمها لم ينتفع أحد بها ، ولم تقم بها حجة - .

شروط الشهادة :

والشهادة لا بد فيها من : علم الشاهد ، وصدقه ، وبيانه. لا يحصل مقصود الشهادة إلا بهذه الأمور ، ولهذا ذم من يكتم ويحرف ، فقال تعالى : ((يَا أَيُّهَا الَذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ ولَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الوَالِدَيْنِ والأَقْرَبِينَ إن يَكُنْ غَنِياً أَوْ فَقِيراً فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلا تَتَّبِعُوا الهَوَى أَن تَعْدِلُوا وإن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً)) [النساء 135] .

وفي الصحيحين عن حكيم بن حزام عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : "البِّيعان بالخيار ما لم يتفرقا ، فإن صدقا وبينا بورك لهما في بيعهما ، وإن كذّبا وكتما محقت بركة بيعهما"(4) .

وإذا كان لا بد من بيان شهادته للعباد ، ليعلموا أنه قد شهد فهو قد بينها بالطريقين : بالسمع والبصر.

أ- فالسميع يسمع آيات الله المتلوة المنزلة ، والبصير يعاين آياته المخلوقة الفعلية ، وذلك أن شهادته تتضمن بيانه ، ودلالته للعباد وتعريفهم ذلك حاصل بآياته ، فإن آياته هي دلالاته وبراهينه التي بها يعرف العباد خبره وشهادته ، كما عرفهم بها أمره ونهيه ، وهو عليم حكيم ، فخبره يتضمن أمره ونهيه ، وفعله بين حكمته .

فالأنبياء إذا أخبروا عنه بكلامه عرف بذلك شهادته وآياته القولية ، ولا بد أن يعرف صدق الأنبياء فيما أخبروا عنه ، وذلك قد عُرِفَ بآياته التي أيد بها الأنبياء ، ودلّ بها على صدقهم ، فإنه لم يبعث نبياً إلا بآية تبين صدقه ، إذ تصديقه بما لا يدل على صدقه غير جائز ، كما قال : ((لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ)) [الحديد 25] ، أي بالآيات البينات .

وقال : ((ومَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ * بِالْبَيِّنَاتِ والزُّبُرِ وأَنزَلْنَا إلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إلَيْهِمْ ولَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ)) [النحل 44] .

وفي الصحيحين عن أبي هريرة -رضي الله عنه- عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : "ما من نبي من الأنبياء إلا وقد أوتي من الآيات ما آمن على مثله البشر ، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة"(5) .

فالآيات والبراهين التي أرسل بها الرسل دلالات الله على صدقهم دلّ بها العباد . وهي شهادة الله بصدقهم فيما بلغوا عنه ، والذي بلغوه فيه شهادته لنفسه فيما أخبر به .

وهو سبحانه اسمه المؤمن ، وهو - في أحد التفسيرين - المصدِّق ، الذي يصدق أنبياءه فيما أخبروا عنه بالدلائل التي دل بها على صدقه .

ب- وأما الطريق العياني ، فهو : أن يرى العباد من الآيات الأفقية والنفسية ما يبين لهم أن الوحي - الذي بلغته الرسل عن الله - حق كما قال تعالى:
((سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحَقُّ أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ))
[فصلت 53] ، أي أو لم يكف بشهادته الخبرة بما علمه ، وهو الوحي الذي أخبر به الرسول ، فإن الله على كل شيء شهيد وعليم به ، فإذا أخبر به وشهد كان ذلك كافياً ؛ وإن لم ير المشهود به ، وشهادته قد علمت بالآيات التي دلّ بها على صدق الرسول ، فالعالم بهذه الطريق لا يحتاج أن ينظر الآيات المشاهدة التي تدلّ على أن القرآن حق ، بل قد يعلم ذلك بما عُلِمَ به أن الرسول صادق فيما أخبر به عن شهادة الله تعالى وكلامه .
وكذلك ذكر الكتاب المنزل ، فقال : ((بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَذِينَ أُوتُوا العِلْمَ ومَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إلاَّ الظَّالِمُونَ)) [العنكبوت 49] ، فبين أن القرآن آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم ، فإنه من أعظم الآيات البينة الدالة على صدق من جاء به ، وقد اجتمع فيه من الآيات ما لم يجتمع في غيره ، فإنه هو الدعوة والحجة ، وهو الدليل والمدلول عليه ، والحكم ، وهو الدعوى ، وهو البينة على الدعوى ، وهو الشاهد والمشهود به .
وأما كون سبحانه صادقاً ؛ فهذا معلوم بالفطرة الضرورية لكل أحد ، فإن الكذب من أبغض الصفات عند بني آدم ، فهو سبحانه منزه عن ذلك ، وكل إنسان محمود يتنزه عن ذلك ، فإن كل أحد يذم الكذب ، فهو وصف ذم على الإطلاق .
وأما عدم علم الإنسان ببعض الأشياء ، فهذا من لوازم المخلوق ، ولا يحيط علماً بكل شيء إلا الله ، فلم يكن عدم العلم عند الناس نقصاً كالكذب .
فلهذا بين الرب علمه بما يشهد به ، وأنه أصدق حديثاً من كل أحد ((وَلَهُ المَثَلُ الأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ)) [الروم 27] ، وهو يقول الحق ، وهو يهدي السبيل ، وهو سبحانه يتكلم بمشيئته وقدرته .
ومن عنده علم الكتاب ، وهم أهل الكتاب ، فهم يشهدون بما جاءت به الأنبياء قبل محمد ، فيشهدون أنهم أتوا بمثل ما أتى به ، كالأمر بعبادة الله وحده ، والنهي عن الشرك ، والإخبار بيوم القيامة ، والشرائع الكلية ، ويشهدون أيضاً بما في كتبهم من ذكر صفاته ، ورسالته وكتابه ، وهذان الطريقان بهما تثبت نبوة النبي - صلى الله عليه وسلم - ، وهي : الآيات والبراهين الدالة على صدقه ، وشهادة نبي آخر - قد علم صدقه - له بالنبوة .
فذكر هذين النوعين بقوله : ((قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وبَيْنَكُمْ ومَنْ عِندَهُ عِلْمُ الكِتَابِ)) [الرعد 43] ، فتلك يعلم بها صدقه بالنظر العقلي في آياته وبراهينه ، وهذه يعلم بها صدقه بالخبر السمعي المنقول عن الأنبياء قبله .

وكذلك قوله : ((قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وبَيْنَكُمْ)) [الأنعام 19] ، فقوله : قل الله ؛ فيها وجهان :
قيل : هو جواب السائل ، وقوله : شهيد ؛ خبر مبتدأ ، أي : هو شهيد .
وقيل : هو مبتدأ ، وقوله : شهيد ؛ خبره ، فأغنى ذلك عن جواب الاستفهام .
و "الأول" على قراءة من يقف على قوله : قل الله .
و "الثاني" على قراءة من لا يقف ، وكلاهما صحيح : لكن الثاني أحسن وهو أتمّ .
وكل أحد يعلم أن الله أكبر شهادة ، فلما قال : ((قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً)) ؟ عُلِمَ أن الله أكبر شهادة من كل شيء ، فقيل له : ((قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وبَيْنَكُمْ)) ، ولما قال : ((اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وبَيْنَكُمْ)) كان في هذا ما يغني عن قوله : إن الله أكبر شهادة . وذلك أن كون الله أكبر شهادة هو معلوم ، ولا يثبت بمجرد قوله ((أَكْبَرُ شَهَادَةً)) بخلاف كونه شهيداً بينه وبينهم ؛ فإن هذا مما يعلم بالنص والاستدلال ، فينظر: هل شهد الله بصدقه وكذبهم في تكذيبه ؟ أم شهد بكذبه وصدقهم في تكذيبه ؟ وإذا نظر في ذلك ؛ علم أن الله شهد بصدقه وكذبهم بالنوعين من الآيات : بكلامه الذي أنزله ؛ وبما بين أنه رسول صادق .
ولهذا أعقبه بقوله : ((وأُوحِيَ إلَيَّ هَذَا القرآن لأُنذِرَكُم بِهِ ومَن بَلَغَ)) [الأنعام 19] ، فإن هذا القرآن فيه الإنذار ، وهو آية شهد بها أنه صادق ، وبالآيات التي يظهرها في الآفاق وفي الأنفس ، حتى يتبين لهم أن القرآن حق .
وفي هذه الآية : ((قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وبَيْنَكُمْ)) ونظائرها ذكر سبحانه أنه شهيد بيني وبينهم ، ولم يقل : شاهد علينا ، ولا شاهد علي ، لأنه ضمن الشهادة الحكم ، فهو شهيد يحكم بشهادته بيني وبينكم ، والحكم قدر زائد على مجرد الشهادة ، فإن الشاهد قد يؤدي الشهادة ، وأما الحاكم فإنه يحكم بالحق للمحق على المبطل ويأخذ حقه منه ، ويعامل المحق بما يستحقه ، والمبطل بما يستحقه .
وهكذا شهادة الله بين الرسول ومتبعيه ، وبين مكذبيه ، فإنها تتضمن :
أ- حكم الله للرسول وأتباعه ، يحكم بما يظهره من الآيات الدالة على صدق الرسول على أنها الحق ، وتلك الآيات أنواع متعددة .
ب- ويحكم له أيضاً بالنجاة والنصر ، والتأييد ، وسعادة الدنيا والآخرة ، ولمكذبيه بالهلاك والعذاب ، وشقاء الدنيا والآخرة ، كما قال تعالى : ((هُوَ الَذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى ودِينِ الحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ)) [الفتح 28] ، فيظهره بالدلائل والآيات العلمية التي تبين أنه حق ؛ ويظهره أيضاً بنصره وتأييده على مخالفيه ، ويكون منصوراً ، كما قال تعالى : ((لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الكِتَابَ والْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وأَنزَلْنَا الحَدِيدَ

فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ)) [الحديد 25] ، فهذه شهادة حكم كما قدمنا ذلك في قوله : ((شَهِدُ اللَّهَ)) .
قال مجاهد والفراء وأبو عبيدة : شهد الله ؛ أي حكم وقضى ، لكن الحكم في قوله : بيني وبينكم ؛ أظهر ، وقد يقول الإنسان لآخر . فلان شاهد بيني وبينك ، أي يتحمل الشهادة بما بيننا ، فالله يشهد بما أنزله ويقوله ، وهذا مثل الشهادة على أعمال العباد ، ولكن المكذبين ما كانوا ينكرون التكذيب ، ولا كانوا يتهمون الرسول بأنه ينكر دعوى الرسالة ، فيكون الشهيد بتضمن الحكم أثبت وأشبه بالقرآن . والله أعلم .
وكذلك قوله : ((لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ والْمَلائِكَةُ يَشْهَدُونَ وكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً)) [النساء 66] ، فإن شهادته بما أنزل إليه هي شهادته بأن الله أنزله منه ، وأنه أنزله بعلمه، فما فيه من الخبر هو خبر عن علم الله ليس خبراً عمن دونه، وهذا كقوله: ((فَإن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ)) [هود 14] ، وليس معنى كونه أنزله مجرد أنه هو معلوم له - فإن جميع الأشياء معلومة له ، وليس في ذلك ما يدل على أنها حق - لكن المعنى : الذي أنزله فيه علمه ، كما يقال : فلان يتكلم بعلم ، ويقول بعلم ، فهو سبحانه أنزله بعلمه ، كما قال : ((قُلْ أَنزَلَهُ الَذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ والأَرْضِ)) [الفرقان 6] ، ولم يقل : تكلم به بعلمه ، لأن ذلك لا يتضمن نزوله إلى الأرض . فإذا قال : ((أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ)) تضمن أن القرآن المنزل إلى الأرض فيه علم الله ، كما قال : ((فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ العِلْمِ)) [آل عمران 61] ، وذلك يتضمن أنه كلام الله نفسه ، منه نزل ولم ينزل من عند غيره ، لأن غير الله لا يعلم ما في نفس الله من العلم - ونفسه هي ذاته المقدسة - إلا أن يعلمه الله بذلك ، كما قال المسيح -عليه السلام-: ((تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي ولا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الغُيُوبِ)) [المائدة 116] .
وقال : ((فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً * إلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ)) [الجن 26] ، فغيبه الذي اختص به لا يُظْهِرُ على أحداً إلا من ارتضى من رسول ، والملائكة لا يعلمون غيب الرب الذي اختص به .
وكذلك قال في [سورة هود]: ((فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إن كُنتُمْ صَادِقِينَ)) [الطور 13] ، لما تحداهم بالإتيان بمثله في قوله : ((فليأتوا بحديث مثله)) [الطور 34] ، ثم تحداهم أن يأتوا بعشر سور مثله ، فعجزوا عن ذا وذاك ، ثم تحداهم أن يأتوا بسورة مثله فعجزوا ، فإن الخلائق لا يمكنهم أن يأتوا بمثله ولا بسورة مثله ، وإذا كان الخلق كلهم عاجزين عن الإتيان بسورة مثله ومحمد منهم علم أنه منزل من الله ، نزله بعلمه ، لم ينزل بعلم مخلوق ، فما فيه من الخبر فهو خبر عن علم الله .
وقوله : ((قُلْ أَنزَلَهُ الَذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ والأَرْضِ)) [الفرقان 16] ، لأن فيه (من) الأسرار التي لا يعلمها إلا الله ما يدل على أن الله أنزله ، فذكره

ذلك يستدل به تارة على أنه حق منزل من الله ، لكن تضمن من الإخبار عن أسرار السموات والأرض والدنيا والأولين والآخرين وسر الغيب مالا يعلمه إلا الله ، فمن هنا نستدل بعلمنا بصدق أخباره أنه من الله .
وإذا ثبت أنه أنزله بعلمه تعالى استدللنا بذلك على أن خبره حق ، وإذا كان خبراً بعلم الله فما فيه من الخبر يستدل به عن الأنبياء وأممهم ، وتارة عن يوم القيامة وما فيها ، والخبر الذي يستدل به لا بد أن نعلم صحته من غير جهته وذلك كإخباره بالمستقبلات فوقعت كما أخبر ، وكإخباره بالأمم الماضية بما يوافق ما عند أهل الكتاب من غير تعلم منهم ، وإخباره بأمور هي سر عند أصحابها كما قال : ((وإذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثاً)) إلى قوله : ((نَبَّأَنِيَ العَلِيمُ الخَبِيرُ)) فقوله : ((أَنزَلَهُ الَذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ)) استدلال بأخباره ، ولهذا ذكره تكذيباً لمن قال : هو ((إفْكٌ افْتَرَاهُ وأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ)) [التحريم 3] ، وقوله : ((أَنزَلَهُ)) استدلال على أنه حق ، وأن الخبر الذي فيه عن الله حق ، ولهذا ذكر ذلك بعد ثبوت التحدي ، وظهور عجز الخلق عن الإتيان بمثله .
ومـــــن شهادته ما يجعله في القلوب من العلم ، وما تنطق به الألسن ن من ذلك ، كما في الصحيـح أن النبي - صلى الله عليه وسلم - مرَّ عليه بجنازة فأثنوا عليها خيراً ، فقال : "وجبت ، وجبت" ومُرَّ عليه بجنازة فأثنوا عليها شراً ، فقال : "وجبت ، وجبت" قالوا: يا رســول الله ؟ ما قولك : وجبت وجبت ؟ قال : "هذه الجنازة أثنيتم عليها خيراً فقلت وجبت لهــا الجنة ، وهذه الجنازة أثنيتم عليها شراً فقلت وجبت لها النار ، أنتم شهداء الله في الأرض (6) فأضافهم إلى الله تعالى .
والشهادة تضاف تارة إلى من يشهد له. وإلى من يشهد عنده، فتقبل شهادته، كما يقال: شهود القاضي، وشهود السلطان، ونحو ذلك من الذين تقبل شهادتهم، وقد يدخل في ذلك من يشهد عليه بما تحَمَّلَه من الشهادة، لـيـؤديـهــا عند غيره، كالذين يشهد الناس عليهم بعقودهم أو أقاريرهم (7) .
فشهداء الله الذين يشهدون له بما جعله وفعله ، ويؤدون الشهادة عنه ، فإنهم إذا رأوا من جعله الله براً تقياً يشهدون أن الله جعله كذلك ، ويؤدون عنه الشهادة ، فهم شهداء الله في الأرض ، وهو سبحانه الذي أشهدهم بأن جعلهم يعلمون ما يشهدون به ، وينطقون به، وإعلامه لهم بذلك هو شهادة منه بذلك ، فهذا أيضاً من شهادته .
وقد قال تعالى: ((لَهُمُ البُشْرَى فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وفِي الآخِرَةِ)) [يونس 64] ، وفسر النبي - صلى الله عليه وسلم - البشرى بالرؤيا الصالحة ، وفسرها بثناء الناس وحمدهم، والبشرى خبر بما يسر ، والخبر شهادة بالبشرى من شهادة الله تعالى . والله سبحانه أعلم.

الهوامش :

*- اخترنا هذا الموضوع نموذجاً لأسلوب ابن تيمية في التفسير ، وقد تصرفنا قليلاً بحذف بعض الجمل المكررة ، وبعض الفقرات ، حتى يكون الموضوع أقرب إلى طبيعة المقال . وقد حرصنا على نشره في حلقة واحدة مع طوله لأنه وحدة معنوية واحدة في معنى الشهادة . ومن أراد الرجوع إليه كاملاً فهو في مجموع الفتاوى 14/168.
1- مجمل معنى هذه الفقرة أن من معاني الشهادة أن يشهد الشاهد لنفسه دون طلب ذلك منه ، ودون إعلان منه لشهادته أمام غيره .
2- أورده البخاري في (كتاب الجهاد) 4/41 .
3- أي الثانية .
4- البخاري 3/76 (كتاب البيوع ، باب إذا بين البيعان ولم يكتما) ، ومسلم في 1/664 (كتاب البيوع ،باب الصدق في البيع) .
5- البخاري 6/224 (كتاب فضائل القرآن) ومسلم (كتاب الإيمان) .
6- البخاري 2/121 (كتاب الجنائز) ، ومسلم في (كتاب الجنائز) 1/379 .
7- جمع إقرار .

مصطلحات وتعريفات (2)

عثمان جمعة ضميرية

2- السلف :

* قال ابن فارس في "معجم مقاييس اللغة"(1):
"سلف، السين واللام والفاء، أصل يدل على تقدُّم وسَبْق . من ذلك السلف ، الذين مضوا، والقوم السُّلاف: المتقدمون. والسلاف: السائل من عصير العنب قبل أن يعصر ، والسلفة : المعجّل من الطعام قبل الغداء.."
وقال الراغب الأصفهاني في "المفردات "(2):
"السـلـف : المتقدم، قال تعالى : ((فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفاً ومَثَلاً لِّلآخِرِينَ)) [الزخرف 56] ، أي: معتبراً مـتقــدماً ، وقال تعالى : ((فَلَهُ مَا سَلَفَ)) [البقرة 275] ، أي يتجافى عما تقدم من ذنبه.. ولفلان سلَفٌ كريم : أي آباء متقدمون ، جمعه أسلاف وسلوف..".
وقال الدامغاني في "الوجوه والنظائر لألفاظ القرآن":
"السلف في القرآن على وجهين : فوجه منهما ، الـسـلـف: الـعـبرة والعظة ، كقوله تعالى ((فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفاً)) [الزخرف 56] ، يعني عظة لمن يأتي بعدهم .
والوجه الثاني، السلف: ما تقدم من الزمن الأول، كقوله تعالى ((وأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ الأُخْتَيْنِ إلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ)) [النساء 23] ، أي : مضى من الزمن الأول" .

* وفي الاصطلاح الشرعي : تطلق كلمة السلف بإطلاقين أحدهما خاص والآخر عام .
ففي الإطلاق الخاص عرَّفه كل طائفة من العلماء بحسب مذهبهم ، فقال علماء الحنفية: السلف من أبي حنيفة إلى محـمد بن الـحـسـن (189هـ) ، ويقابله الخلف : من محمد بن الحسن إلى شمس الأئمة الحلواني (448 هـ) .
ومن ينتسب إلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل يقول: السلف: الإمام أحمد بن حنبل، ومَنْ تقدَّمه من الصحابة والتابعين .
وعلماء الشافعية والمالكية وعلماء الكلام، يقولون: السلف ما كان قبل الأربعمائة ، والخلف ما كان بعد الأربعمائة(3) .
* وفي الإطلاق الشرعي العام ، يراد بالمسلف : كل من يُقلَّد مذهبه في الدين ويُقْتَفي أثره فيه ، كالصحابة والتابعين والأئمة المجتهدين (4) .
ثـــم أصبح مع التطور التاريخي لظهور الفرق الإسلامية منحصراً في المدرسة السلفية التي حافـظـــت على العقيدة والمنهج الإسلامي طبقاً لفهم الأوائل الذين تلقَّوه جيلاً بعد جيل ، وأبرز سماتهم التمسك بمنهج النقل ؛ ولهذا عرفوا في البداية بأنهم "أهل الحديث" للتمييز بينهم وبيـن مـــن انسلخ عن هذا المنهج من الشيعة والمعتزلة والخوارج وغيرهم . كما أنهم يعرفون أيضاً بأنهم "أهل الأثر". وهذه النسبة إلى الأثر، تعني:الحديث وطلبه وأتباعه(5).
* ومن هذه الإطلاقات لكلمة السلف نخلص إلى أن هذا اللفظ يشمل : الصحابة والتابعين، وتابعيهم من الأئمة الذين يقتدى بهم، كالأئمة الأربعة: أبي حـنـيـفـــة ومالك والشافعي وأحمد بن حنبل، وسفيان الثوري ، وابن عيينة ، وحماد بن سلمة، وحماد بن زيد، وابن أبي شيبة، والبخاري ومسلم، وأصحاب السنن الأربعة.. وغـيـرهم مـــــن الأئمة الأجلاء الأعلام الذين شُهِد لهم بالإمامة في الدين والورع والتقوى ظاهراً وباطناً ، وتـلـقــى الـناس كلامهم بالقبول والعمل به خلفاً عن سلف (6) دون اعتبار لزمن معين . وعندئذ يـتـحــدد مذهب السلف بما كان عليه الصحابة الكرام والتابعون وتابعوهم من الأئمة المذكورين (7) .
* ويخرج عن السلف كل من رُمِيَ ببدعة أو اشتهر بلقبٍ غير مرضيّ من الفرق المخالفة للسنة ولمذهب الصحابة وما كانوا عليه، مثل: الروافض، والخوارج، والقَدَرية، والمرجئة، والجبرية، والمعتزلة، والمشبهة أو المجسِّمة وسائر الفرق الضالة، فهؤلاء ليسوا على ما كان عليه النبي - صلى الله عليه وسلم -، بـل هـــم مخــالفون لهم، ومخالفون لأهل السنة والجماعة من فقهاء الأمة وعلمائها الذين يقتدى بهم في الدين(8).
وكذلك : ليس من مذهب السلف - رحمهم الله - حمل الناس على اعتقادٍ لم يعتقده الرسول - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه ، ولا امتحان الناس بما لم يمتحنهم الله تعالى به ، والعمل على الفتنة وتفريق صفوف الأمة .

وليس من مذهب السلف - وإن ادّعاه قوم - أن يُطلِق إنسانٌ لسانه بالطعن والشتم على الأئمة المتقدمين ، ولا سيما الأئمة الأربعة ، ويحط من قدرهم بنسبتهم إلى الجهل أو الخطأ أو تعمد التغيير في الأحكام ، ويستدل على مُدَّعاه بآية يأخذها على ظاهرها دون أن يفقه معناها ، أو يستدل بحديث لا يدري قول الأئمة فيه ، ويدعو الناس والعوام إلى الأخذ من القرآن أو الحديث من غير اتباع لقول أحد من الأئمة ، ويقول : هذا كتاب الله وسنة رسول الله بين أيدينا ، فأي حاجة بنا إلى تقليد فلان أو فلان ، وهم رجال ونحن رجال ! هذا القول ليس بحق ، أو هو حق أريد به باطل ، بل هو محض باطل أراد به صاحبه تشكيك الناس ، أو الوصول إلى الشهرة بينهم ، إذ ليس بوسع كل أحد أن يأخذ أي حكم يريده من القرآن أو السنة إلا بمراجعة ما ورد من الأئمة في ذلك الحكم ، فهم أقرب عهداً بالرسول - صلى الله عليه وسلم - ، وأكثر علماً وإحاطة بما جاء عنه ، وفي الآيات والأحاديث ما هو منسوخ ، وما هو مقيد ، وما هو محمول على غيره ، كما هو مذكور في علم الأصول .
وليس من مذهب السلف أيضاً : تأويل القرآن الكريم بالرأي الفاسد ، دون النظر إلى ما ورد عن أئمة اللغة وما فسر به الصحابة وما ورد فيه من آيات وأحاديث ، وإلا فإنه يأخذ بعض الآيات والأحاديث ، يضرب بعضها ببعض ، أو يأخذ بعض الأدلة ويترك سائرها ، أو يترك المحكم من النصوص في القرآن والسنة ، فيأخذ ما يتفق وعقله وينبذ ما لا يتفق معه أو لا يعرف وجهه ومعناه ، أو يحمل نصوص الشرع على وفق هواه ومذهبه الذي ينتحله باطلاً (9) .

3- أهل الحديث :

* الحديث في اللغة : ضد القديم ، ويستعمل في كثير من الكلام وقليله ، وهو اسم من التحديث بمعنى الإخبار . ثم سمي كل ما صدر عن النبي - صلى الله عليه وسلم - من قول أو فعل أو تقرير أو وصف خَلْقي أو خُلُقي .
وبعض العلماء يضيف إلى ذلك : ما أضيف إلى الصحابي أو التابعي أو ما صدر عنهما . وعندئذ تصبح كلمة الحديث مرادفة للخبر عند علماء الحديث . وهو مرادف كذلك لكلمة "الأثر" عند بعض العلماء(10) .
وتقدم - فيما سبق - أن الفرق بين السنة والحديث : أن الحديث كل واقعة نسبت إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - ولو كان فَعَلَها مرة واحدة في حياته الشريفة ، أو رواها عنه شخص واحد .
* وأما السنة : فهي الطريقة المتواترة للعمل بالحديث بل القرآن أيضاً . فقد ورد - مثلاً - في القرآن الكريم : الأمر بإقامة الصلاة ، وبين فيه بعض تفاصيلها أيضاً ، فالرسول - صلى الله عليه وسلم - بموجب ذلك قال : "صلُّوا كما رأيتموني أصلي"(11) . واستمر على تلك الكيفية وكذلك الصحابة والتابعون وسائر المسلمين . وهكذا الأمر في الصيام والزكاة والحج وسائر الأوامر القرآنية .

فالصورة العلمية التي رسمها الرسول - صلى الله عليه وسلم - لألفاظ القرآن هي السنة ، وهي في الحقيقة تفسير عملي للقرآن (12) .
* فإذا تعرفنا على معنى الحديث ، فإننا نستطيع أن نتعرف على : "أهل الحديث" ؛ وهم الذين سلكوا طريق الصالحين واتبعوا آثار السلف من الماضين ، وكان لهم عناية خاصة بأحاديث النبي - صلى الله عليه وسلم - : جمعاً وحفظاً ورواية وفهماً وعملاً في الظاهر والباطن ، فكانوا بذلك ألزم الناس لسنن النبي - صلى الله عليه وسلم - ، لا يقدِّمون بين يديه ، ولا يرفعون صوتهم فوق صوته بتقديم رأي أو هوى أو استحداث بدعة .
ومنهم : كلٌّ عالم فقيه ، وإمام رفيع نبيه ، وزاهد في قبيلة ، ومخصوص بفضيلة ، وقارئ متقن وخطيب مُحْسن ، وهم الجمهور العظيم ، وسبيلهم السبيل المستقيم ، لأنهم أخذوا دينهم وهديهم من الكتاب والسنة وطريق النقل ، فأورثهم ذلك اتفاقاً في الدين وائتلافاً ، رغم بعد ديارهم واختلاف أزمانهم(13) .
* وكان المتقدمون يطلقون مصطلح "أهل الحديث" على المدرسة التي تقابل أهل الكلام ، أي مقابل علماء الكلام الذين عابهم السلف لما أدخلوا في الاعتقاد من مصطلحات وأفكار غريبة عن المنهج الإسلامي ، ولذلك اشتد النكير عليهم من علماء السنة . وهم أنفسهم - أي علماء الكلام - كان يطلق عليهم "أهل الرأي"(14) . لأنهم يقدمون آراءهم على الكتاب والسنة، ويعطون عقولهم سلطة الحكم على النصوص الشرعية . وهؤلاء هم من أعداء السنن حقيقة كما جاء وصفهم عن عمر -رضي الله عنه- .
* ثم أصبحت كلمة "أهل الحديث" تطلق بمعنى أخص على فئة معينة ممن يعنون بدراسة الحديث النبوي رواية ودراية،أو رواية فحسب، أو ممن ينتسبون إلى هذا الأمر ويجتمعون عليه نظراً ، ولو لم يكن لهم نصيب يذكر من العلم بالحديث النبوي الشريف .
وينبغي التنبيه إلى تغير المصطلحات بمرور الأزمـنـة، واختلاف مدلولاتها بين عصر وآخر عند كثير من الناس .
وإذا كان الأئمة - يرحمهم الله - يطلقون على أهــل الحديث - في الماضي - أنهم الفرقة الناجية والطائفة المنصورة ، فإن اصطلاح أهل الـحــــديث قد ضاقت دائرته عند الكثيرين حتى صار عَلَماً على فئات تكون من أهل الحديث، ولكنها ليست أهل الحديث.
ولذلك لا يحسن إطلاق (الفرقة الناجية) على فئات محددة تتسمى بأهل الحديث ، وإن كانت هي - فعلاً - من أهل الحديث ، بل ينبغي إعادة هذا الاصطلاح إلى مفهومه الموسع الصحيح (15) .
* وإذا لاحظنا فيما سبق أن مفهوم "أهل السنة والجماعة" يلتقي مع مفهوم "السلف"، فإن مفهوم "أهل الحديث" أو "أهل الأثر" بالمعنى الواسع لا يخرج

عنهما كذلك، ولـذلـك لــم يكـن مذهـب السـلـــف أو أهل السنة مذهباً جديداً مبتدعاً ، بل هو المنهج الذي كان عليه الرسول - صلى الله عـلـيه وسلم - وصحابته الكرام والتابعون لهم بإحسان ، وكذلك سائر الأئمة ، وإنما تميزوا - فـيـمــا بعد - بهذا اللقب أو التسمية في مقابل أهل البدع والأهواء والفرق المخالفة ، ومن هنا جاء الحديث عن عقيدة أهل السنة والجماعة .

فإذا لم يكن ما يدعو للمقابلة والـتـمـيز لعدم وجود ما يناهضها ، يعود الحديث عندئذ عن العقيدة الإسلامية ، هكذا بعامة ، والله الموفق .

الهوامش :

1- 3/95 .

2- ص 239 .

3- نموذج من الأعمال الخيرية ، لمحمد منير الدمشقي ص (10-11) ،وانظر : الكليات لأبي البقاء 3/34 .

4- انظر : كشاف اصطلاحات الفنون : 4/15 ، الكليات : 3/34 .

5- قواعد المنهج السلفي ، للدكتور مصطفى حلمي ص (23) .

6- انظر: لوامع الأنوار البهِيَّة : 1/20 ، ونموذج من الأعمال الخيرية ، ص (11 - 12) ، الحجة في بيانَ المحجة 2/473-476 .

7- المراجع السابقة ، وانظر : السلفية ودعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ص (10-11) ، أهل السنة والجماعة ، معالم الإنطلاقة الكبرى ص (51-52) .

8- المراجع السابقة ،والفرق بين الفِرَق للبغدادي ص (318-322) .

9- انظر في هذه المعاني السابقة : نموذج من الأعمال الخيرية ص (12-17) ، الوصية الكبرى لابن تيمية ص (63-64) ، فتاوى الشيخ محمد بن إبراهيم : 3/162-163 ، الاعتصام للشاطبي : 1/220 ، ما بعدها .

10- انظر : الباعث الحثيث لابن كثير ص (17) .

11- اخرجه البخاري عن مالك بن الحويرث ، كتاب الأذان : 2/111 وفي الأدب : 10/438

12- تحقيق معنى السنة للسيد سليمان الندوي ص 20-22 .

13- انظر: معرفة علوم الحديث للحاكم ص 2-4 ، الحجة في بيان المحجة للأصفهاني : 2/220-236 ، شرف أصحاب الخطيب للبغدادي ص 8-11 ، فتاوى شيخ الإسلام : 4/91-95 ، قواعد الحديث للقاسمي ص 60 .

14- وإن كانت تطلق أيضاً على مدرسة الكوفة الفقهية ، التي يمثلها الحنفية فيما بعد ولكن ليس المراد بهم عند المقابلة بأهل الحديث فقهاء الحنفية ، وأنما يراد بهم المعتزلة وأهل الكلام . ويؤيد هذا أن مدرسة الكوفة والحجاز كلتاهما (الحنفية وأهل الحديث) تعتمدان على القرآن والحديث ، وكذلك يقولون بالرأي بدرجة متقاربة وصور متشابهة ، ويشهد له أيضاً : أن ابن

قتيبة -رحمه الله- ، وهو صاحب الهجوم الشديد على أهل الرأي ، عد منهم - في كتابه : المعارف - الأوزاعي ، وسفيان الثوري ، والإمام مالكاً ، وهؤلاء ليسوا من مدرسة الحنفية أو الرأي على ما هو مشهور .
انظر: الاتجاهات الفقهية عند أصحاب الحديث للدكتور عبد المجيد محمود ص 21 وما بعدها ، المعارف لابن قتيبة ص 494-499 .
15- صفة الغرباء ، للشيخ سليمان العودة ص 118 .

كيف ننمي الملكة الفقهية (الاستنباط) ؟

ستر الجعيد

تمهيد:

الفـقـه فـي الـديـن أمـر مـهـم جداً، فمن يرد الله به خيراً يفقهه في الدين، وبه دعا النبي - صلى الله علـيـه وسـلم - لابـن عباس. وحصوله ليس بالأمر الهين، بل يحتاج إلى جهد وصبر ومعاناة، مع توفيق الله للعبد أولاً وأخيراً.
لكن الفقه يبدأ قـليلاً فينمو وتكبر شجرته حتى تؤتى ثمارها في كل حين بإذن الله ولما حان الفقه قوياً وفـتياً كانت الأمة في قمة مجدها، لكنها نزلت إلى الحضيض بقدر ما فقدت من الفقه في الدين ومعالجة ما يعترضها من مشكلات على ضوء كتاب الله وسنة رسوله - صلى الله عليه وسلم -.
وحاجتنا ماسة إلى تنمية الـملكة الفقهية والاستنباط،لأنها تنقدح وتنمو، فالإنسان لا يولد فقيهاً فالعلم بالتعلم والحلم بالـتحـلُّـم. وقد بذل العلماء في هذا الشأن جهوداً موفقة ما بين علماء للفقه فرعوا الفروع من الأدلة، وافـتـرضــوا المسائل، وأودعوها الكتب، وحاولوا أن يستنبطوا لكل مسـألة يتصورون وقوعها، أو هي واقـعـة حكـمـاً، حتى حققوا آثاراً تبعث على الفرح والارتياح ؟
وأقـبـل فـريـق مـنهـم عـلـى حديـث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فجعلوه عمدتهم يتحرون ثبوته بل ينتقون أعـلاه، ثم يستنبطون منه ما يوفقهم الله لفهمه، وكلا الفريقين على خير، لكن الفريق الثاني كان إلى الاحتياط أقرب وإلى قوة المصدر كذلك وإعمال الذهن في كلام المعصوم. فهم يحـقـقـون بطريقتهم تلك آثاراً تنعكس على الفقيه والمستنبط وإن كان كلاهما مجتهد مصيب له أجران، أو مخطئ له أجر واحد.
وسنسلك في هذه المقالات مـسلـك الفريق الذي عول على الأحاديث الصحيحة فأعمل ذهنه للاستنباط منها لحاجتنا الماســة إلـى الـفـقــه في الدين بهذه الطريقة، وكم نرى من الآثار السيئة نتيجة لفقدان الفقه الصحيح بنوعيه في أمورنا كلها.

هدف هذه المقالات :

ولـيـس من هدف هذه المقالات بيان المسألة من حيث الرجحان أو ضده، فتلك لها مشرب آخـــر وهــو اسـتـعـراض الأدلة والمقارنة بينها، وهو مقصد لا شك مهم ويكون سبباً لنمو الاستنباط لكنه ربما جعل الإنسان يتحير في خضم الأدلة والمعارضات بين الأقوال،فيضعف تمييزه بل ربما ألمّ به شيء من الملل.

أمــا الـطـريقـة التي نتبعها في هذه المقالات فهي أقرب إلى التشويق منها إلى الملل، حيث تعتمد على إيراد بـعــض الأدلة الصحيحة من أعلى مصادر الصحيح، ثم التعقيب عليها بما فيها من فوائد فقهية وتوجيهات تربوية بصورة مختصرة. وهذه الطريقة ليست جديدة فقد استخدمها كثير من العلماء، ولا سيما أئمة الحديث، ولـيـسـت الفــوائد مرتبة حسب سياق الدليل بل فيها نوع من التقدم والتأخير.

أ- نص الحديث :

روى مسلــم عن أبي سعيد الخدري -رضي الله عنه- أن أناساً من عبد القيس قدموا على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقالوا :

- يا نبي الله : إنا حي من ربيعة، وبيننا وبينك كفار مضر، ولا نقدر عليك إلا في أشهر الحرم، فمرنا بأمر نأمر به من وراءنا، وندخل به الجنة إذا نحن أخذنا به.

- فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : آمركم بأربع، وأنهاكم عن أربع : اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وأقيموا الصلاة، وآتوا الزكاة، وصوموا رمضان، وأعطوا الخمس من الغنائم. وأنهاكم عن أربع : عن الدُّبَّاء والحَنْتَم والمُزَفّت والنَّقير. قالوا: يا نبي الله ما علمك بالنقير ؟ قال: بلى، جذع تنقرونه فتقذفون فيه من القُطَيعاء - قال سعيد: أو قال: من التمر، ثم تصبون فيه من الماء، حتى إذا سكن غليانه شربتموه حتى إن أحدكم أو إن أحدهم ليضرب ابن عمه بالسيف، قال وفي القوم رجل أصابته جراحة كذلك قال : وكنت أخبؤها حياءً من رسول الله - صلى الله عليه وسلم -.

فقلت : فيم نشرب يا رسول الله، قال : في أسقية الأَدَم التي يلاث على أفواهها، قالوا : يا رسول الله : إن أرضنا كثيرة الجرذان ولا تبقى فيها أسقية الأَدَم. فقال نبي الله - صلى الله عليه وسلم - : وإن أكلتها الجرذان، وإن أكلتها الجرذان، وإن أكلتها الجرذان. قال: وقال نبي الله - صلى الله عليه وسلم - لأشجِّ عبد القيس إن فيك لخصلتين يحبهما الله: الحلم والأناة(1).

ب - فيه فوائد:

- بدء الوصايا بالتوحيد.
- الإخبار بالقدرات والإمكانات المعينة على الخير والموانع منه.
- الحرص على البحث عن طريق الجنة مع كثرة المعوقات فكيف عند زوالها وخفتها ؟
- أسلوب الحصر ليفهم المتلقي.

- إيراد الحجة على الأمور الواضحة.
- ضرورة فهم الواقع لتنزيل الفتوى عليه ولمقاصد أخرى.
- التربية بقدر حاجة المتلقي.
- التربية بالمدح وصيغته وصيغة المرغب فيها.
- من الأوصاف ما التصق بالموصوف فلا يعني ذكرها المشروعية.

الهوامش:

1- أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، مسلم بشرح النووي 1/189-192، ط دار إحياء التراث العربي.

مراجعات في عالم الكتب

السيرة النبوية كما جاءت في الأحاديث الصحيحة - قراءة جديدة(*) -

تأليف: محمد الصوياني

عرض: د. مالك الأحمد

حقاً، إنـهـا قـراءة جـديــدة للـسـيـرة النبوية، إنها ليست أحداثاً فحسب إنها قصة ممتعة تجذبك من أولها إلى آخرها إنـهـــا ((قـصـة طفل طهور كالبَرَد، ولد يتيماً، واستمر اليتـم يـلاحـقــه ويلاحــق طفـولـته في طـرقـات مكة ودروبها.. يذيقه المرارة.. يفـجـعـه بأهـلــه وأحبابه..)).

يصور لك الكتاب أحداث السـيـرة النبـويـة كما جاءت في الأحاديث النبوية الصحيحة - بطريقة أدبية مشوقة، ويربط بين أحداثهـا بعباراته اللطيفة الحنونة. فتعيش معها كأنك في ذلك العهد وكأنك من أفراد ذلك المجتـمـع.

إنـهــا ((سيرة لم تكن أبداً ماضياً أبداً بل شعلة توقد شموس الحياة ودماء تتدفق في عروق المستقبل والأجيال)).

أما عن طريقته الجديدة فيقول: ((أحاول في هذه القـصــة - السيرة - أن أبسط ما أمكن.. أن أجعل هذه الأحداث سهلة في متناول الجميع خاصة مــن لا يبـحـثــون عن التعقيد أو التفـريع، لذلك صغتها وربطت بين أحاديثها الصحيحة لتكون قصة لا روايات أحــداث متفرقة فقط)). وقد وفق الكاتب في طريقته المشوقة وسنمر سريعاً على بعض فصول الكتاب.

بدأ الـكـاتـب فـي أحــداث السيرة من عبد المطلب جد الرسول - صلى الله عليه وسلم - واستعرض سريعاً في تـلـك الفترة المبكرة قصة إبراهيم الخليل وولده إسماعيل عند الحديث عن عبد المطلب وكشفه لـزمـزم، ثم يحدثنا عن

ولد عبد المطلب عبد الله ((تربى عبد الله ذلك الطفل الوديع في قلب عبد المطلب وتربع فيه، وبلغ مبلغ الرجال دون أن يعرفه قومه بطيش أو سفه، كأني به هادئ كثير الصمت والتأمل ملىء بالانتظار، ليس في حياته ما يثير، كأنه كالعالم من حوله ينتظر وينتظر، ويبحث عن زوجة له في بيوتات مكة ويسأل، فكانت آمنة بن وهب بن عبد مناف هي الحبيبة وهي الإجابة)).
ثم يحدثنا الكاتب عن وفاة عبد الله بألم وحرقة وحزن آمنة المفجوعة بزوجها الذي قبض بعيداً عنها وكانت تتحرق لعودته محملاً بالحب والهدايا وحكايات السفر.
وهكذا تمضي الأحداث ويولد سيد البشر محمد بن عبد الله - صلى الله عليه وسلم - ويرد الكاتب على المغفلين والأغبياء الذين أنشأوا حول مولده الأساطير والخرافات، ويشير بعجالة إلى هذه الأكاذيب ويحقق ما جاء من روايات صحيحة في ذلك.
ثم يمضي الكاتب في رحلة السيرة من تسميته إلى رضاعته ونشأته، ونقف عند وفاة أمه حيث لا يسعك إلا أن تذرف الدمع عند قراءة ذلك الحدث كما يصوره الكاتب ((ورجعت آمنة بصغيرها إلى مكة، وفي مكان يقال له الأبواء بين مكة والمدينة توقفت المطايا، ونزلت آمنة عن ظهر الراحلة، ونزل صغيرها وقد تعلقت بها عيناه وهي تتوجع وتئن أمامه، فلا يستطيع منحها ما يخفف ألمها سوى نظرات حائرة خائفة، وتزيد آلامها ويزيد أنينها وتموت آمنة وتدفن أمام عينيه، بعيداً عن مكة، بعيداً عن عبد المطلب، بعيداً عن أعمامه، تؤخذ آمنة منه وتوارى تحت أكوام التراب، ويعود باكياً وحيداً حزيناً وقد تيتم مرة ثانية". ويصور لك الكاتب وقع الموت على قلب ذلك الصبي وذكراها في نفسه، ثم ينقلك سنوات بعد ذلك: ((لقد تعلق بها رغم أنه لم يحظ بقربها إلا سنوات قليلة، مر ذات يوم بقبرها فرؤي له بكاء لم يبكه من قبل، يقول بريدة -رضي الله عنه-: (انتهى النبي - صلى الله عليه وسلم - إلى رسم قبر فجلس وجلس الناس حوله فجعل يحرك رأسه كالمخاطب ثم بكى، فاستقبله عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- فقال: يا رسول الله ما يبكيك ؟ فقال: هذا قبر آمنة بنت وهب، استأذنت ربي في أن أزور قبرها، فأذن لي، واستأذنته في الاستغفار لها فأبى، وأدركتني رقتها فبكيت، فما رؤي ساعة أكثر باكياً من تلك الساعة).
ثم يعرج بالتفصيل على أحداث نشأة الرسول - صلى الله عليه وسلم - زواجه ومبعثه بأسلوب شجي يخاطب العقل والقلب ويثير المشاعر والأحاسيس مورداً الروايات الصحيحة ضارباً صفحاً عبر الروايات الضعيفة فضلاً عن الموضوعة. ثم يبين موقف قريش من الرسول - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه ((ماذا تتوقعون من جيوش من الأصنام: أصنام العادات والتقاليد وشرف الآباء والأجداد، والثارات، وأصنام الحجارة المرصوفة على الأرفف

وفي مداخل البيوت، وحتى في خرج المسافر. وقبل ذلك فوق الكعبة ويحلف بها وتستشار ويصلى لها ويذاد عنها بالمال والبنين وزينة الحياة كلها)).
ويفصل في تعذيب قريش للرسول - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه. وتحت عنوان أول الشهداء يقول الكاتب ((إنها امرأة: أول المسلمين كان امرأة، أول اعتداء على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان بيد امرأة وكذلك أول شهيد في الإسلام امرأة طاعنة في السن، اقتادها رجل شرس يقال له أبو جهل فاق أبا لهب قسوة وغلظة، تبقى المسكينة ترسف في قيودها نحو بطحاء مكة، ثم يطعنها برمحه أمام زوجها وابنها)) و((وسمية الراحلة، لها رفاق صامدون شامخون كأطواد مكة أرادتهم قريش عبيداً، فانتزعوا حريتهم بأيديهم، عذبوهم لكنهم رفضوا الخنوع لسياط الشرك فعاشوا يتنفسون هواء الحرية الرحب حتى ماتوا..)).
ثم يتابع الكاتب أخبار من أسلموا، وهجرتي الحبشة وما لاقاه المسلمون هناك، ومعاناة الرسول - صلى الله عليه وسلم - مع قريش. والكاتب دوماً يفصل بين كلامه والروايات المسندة كي لا يختلط كلامه بالروايات المخرجة في الحاشية والتي يحكم عليها الكاتب بما يراه من حسن أو صحة.
وتتوالى الأحداث سراعاً من المجاعة في مكة، إلى حصار الشعب، فعام الحزن، فرحلة الطائف فالإسراء والمعراج، فبيعتي العقبة، ثم الهجرة إلى المدينة، مفصلاً أحداثها ساعة بساعة، واصفاً حال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وصاحبه وما لاقاه في طريق الهجرة حتى وصولهما إلى المدينة.
رغم الجهد الكبير والطيب الذي بذله الكاتب في إخراج السيرة بهذه الصورة الرائعة، فإن الكتاب لا يخلو من هفوات نشير إليها بعجالة.
بالنسبة لتخريج الروايـــات، فالكاتب - رغم أنه بذل الوسع في الحكم عليها - فقد كان متساهلاً في كثير من المواضــع في تحسين الروايات رغم ضعفها عند أهل الاختصاص (انظر على سبيل المثال تفاصيل الطـائـف ولـقـــاء عداس، وإسلام عمر، وقصة أم معبد، ويمكن الرجوع في تفاصيل الروايات والحكم عـلـيـها إلى كتاب (السيرة النبوية الصحيحة للدكتور أكرم ضياء العمري).
مـــــن جانب آخر حاول الكاتب أن يقحم نفسه - في مواضع قليلة - في نقد أوضاع بعض الدعـــاة في زماننا، رغم أن المحل غير ملائم لمثل هذا الحديث، فمثلاً عقب الحديث عن طلب قـريــش مـــن النبي - صلى الله عليه وسلم - التنازل، يقول: ((فمن المتحمسين من يحمل بضعة أحاديـث يغلفـهـا بسوء ظن ويرصد من حوله ليرميه بالكفر والمروق أو الفسق والانحلال)) ((ويصنف الناس إلـى ملتزمين وغير ملتزمين وينسى أثناء تصنيفه ما هو أهم، ينسى أخوة الإسلام..)).

والكاتب في ظني لم يوفق في إيحاءاته، وليس المجال ملائماً لبحث مثل هذه الظواهر،وكان الأجـدر بــــه أن يستمر في حديثه في السيرة على منهجه الذي ارتآه، وليس مقصودي أن سرد الدروس المسـتـفاة من السيرة غير مهم - بل هو الأهم - لكن هذا الأمر ليس مستهدفاً لدى الكاتب، ولم يتـبـين هذا النهج، بل منهجه كما أسلفنا عرض السيرة النبوية في قالب قصصي.

الهوامش:

*الكتاب صدر عام (1412) عن مكتبة الصفحات الذهبية، الرياض في 216 صفحة.

خواطر في الدعوة

الحزبية

محمد العبدة

ليس هناك أضر على الدعوة الإسلامية المعاصرة من الحزبية المنغلقة الضيقة،إنها داء وبيل يفتك بالإخوة الإسلامية، فيقطع أواصرها ويجعل صفوهاً كدراً.

هـل يجــوز للمسلم أن يكون وجهه الطلق ؛ وابتسامته العريضة، وسلامه الحار لمن هو من حزبه أو جماعـتـه ؛ ولغيره العبوس والسلام البارد ؟! وهل يجوز للمسلم أن يغض الطرف عن أخطاء أصحابه ؛ وإذا وقع غيره في الأخطاء نفسها شهّر به وتكلم عليه ؟! وإذا ذكرت لـــه انحـرافــاً فـي الفـكر أو التصور وقع به واحد منهم أتى بالمبررات وقال: هذه أخطاء؛ ولكنها لا تخدش في أصـــل المنهج ! وبسبب هذه الحزبية تراه لا يطّلع ولا يقرأ ولا يستقي إلا من طرف واحد، من كـتـب أصحـابـه وممن يوصى أن لا يقرأ إلا لهم، فيتخرج ضيّق الأفق،مشوه الشخصية الثقافية، لا ينظر إلا من زاوية واحدة ولا يعرف إلا الفكر الأحادي.

كـيـف تغلـغـلـت هذه الحزبية إلى صفوف الدعوة ؟ ومن الذي يمدها حتى تستمر ؟ لا شك أنها التربية الـسـيـئة التي تمارس على الفرد فيقال له: نحن الأفضل، وغيرنا فيه نقص كذا ونقص كذا، وكل هذا حباً في التكثير والتجميع، فلا بد أن يشوه الطرف الآخر حتى لا يذهب الفرد إليهم، وكـأنـنـا أحــزاب تتنافس على الانتخابـات فهي تشتري الأصوات بالدعاية والمال.

ومن هذه التربية أن يحال بين الفرد في أول عهده بالدعوة وتلقي العلم، وبين الجلوس إلى الـعـلـمـاء أو من عندهم علم وخبرة، فيربونه بأدبهم وسمتهم وتجربتهم، وإذا حيل بينه وبين هــذا فهو يتلقى ممن يباشر عملية التربية، فإذا كان ديناً وعنده علم وليس فيه حب الزعامة كـانت التربية أقرب للصواب، وإذا كان ممن يحب الزعامة أو فيه شيء من زغل العلم فـعـنـدئذ يتخرج من

تحت عباءته شباب متحزبون مشوهون. ولا ينجو من هذا الداء إلا من تنبه له من البداية، وعرف أن أنواعاً من التربية ستؤدي حتماً إلى الحزبية،فخاف واحتاط لنفسه، فهو يحاسب نفسه ويلتفت وراءه ويجدد ويتجدد بين كل فترة وأخرى، حتى لا يقع في هذا الداء الذي تطاير شرره وعم بلاؤه.

البيان الأدبي

إسلامية الأدب

د. عبد الرحمن العشماوي

الحمد لله والصلاة والسلام على رسوله وبعد... فـإن ســؤالاً واحداً يلاحقني في كل أمسية شعرية، أو ندوة أو لقاء بعشاق الأدب مـــن الشباب، وهـو.. كـيـف تتحقـق الإسلامـية في الأدب؟؟

ويـتـبـع هــذا السؤال - غالباً - عدد من الشبهات التي ما تزال تثار حول مصطلح الأدب الإسلامي، ويمكن أن أحصر تلك الشبهات فيما يلي:

1- عندما نقول "الأدب الإسلامي" فإننا نُلغي بذلك الأدب العربي.

2- الأدب الإسلامي يتعارض مع الجانب الفني للأدب،لأنه يحصر الأدب في زوايا الوعظ والإرشاد فقط، وهذا إخلال بفنية الأدب لا يمكن أن يُقبل.

3- الأدب الإسلامي أدب واضح مباشر لا تتحقق به المتعة الفنية.

4- عندما نقول في ظلِّ التصوُّر الإسلامي للأدب: "هذا أديب غير إسلامي" فإنَّ هذا يجرُّنا إلى تكفير الأديب المسلم الذي لا يدخل في دائرة هــذا التصوُّر ونحن منهيون - شرعاً - أن نكفِّر مسلماً بهذه الطريقة.

5- إن مصطلح الأدب الإسلامي بدعةٌ معاصرة، لم يقل بها أحدٌ من سلف هذه الأمة، فهل نحن أحرص على الإسلام من أولئك ؟!

6- إن الأدب الإسـلامي يدعــو إلى التميُّز. ونحن نعيش عصر النظام العالمي الجديد الذي ينادي بثقافة عالمية موحدة.

هذه هي - على وجه التقريب الشُّبه التي تُثار هذه الأيام حول مصطلح الأدب الإسلامي، وربما توجه إليه شُبَهٌ أخرى، ولكنها لا تكاد تخرج عما ذكرتُه هنا.

وأقول: من المؤكد لدينا أنَّه ما من فكرة تطرح، أو مصطلح علمي أو أدبي يوضع إلا وتكون في جداره ثغرات، وتحدث أمامه وقفات نقدية وتثار حوله شبهاتٌ، بل لعل تلك النقدات الموجهة، وهــذه الـشـبـهـات الـمثارة هي التي تتكفل بسدِّ ثغرات المصطلح وتصحيح ما قد يحدث في دلالاته من أخطاء.

ولا بد مــن اتـســاع صــدور أصحاب المصطلح لما يوجَّه إلى مصطلحهم من نقد مهما كانت الدوافع وراء ذلك النقد.

ولعلَّ من المفيد هنا أن أذكِّر الإخوة القراء بأهمية فهم المصطلح فهماً واعياً من قبل الناقد له حتى يبني أحكامه على قاعدة صحيحة. ولو راعى كل ناقدٍ

هذا الجانب لسلم الأدب من شرٍّ كثير من "المناقشات الجدلية" التي لا فائدة منها.
وأعود إلى موضوع الأدب الإسلامي فأقول: إنَّ هـــذا الـمصطلح يقوم على قاعدةٍ راسخة من التصور الإسلامي الصافي للكون والحياة والإنسان، وهــو كـمـا نـعـلـم تصوُّر شامل فسيح، لا يترك جانباً من جوانب الحياة دون تأمُّل وتفكُّر، كما أنه تصوُّر سلـيم من آفات الأفكار والـمذاهب والمعتقدات البشرية المحرَّفة القائمة على "قرارات طائشة" يصـــدرهـا الـعـقــل البشري العاجز عجزاً ظاهراً أمام كثير من جوانب الكون الخفية "وفوق كل ذي علم عليم".
ونعني بالتصور الإسلامي، تلك الرؤيا الشاملة التي تمكِّن الأديب المسلم من رؤية ما يجري فـي هــذا الوجود بصفاء، بل هي - الرؤية - التي تفتح أمام الأديب نوافذ الحياة الدنيا، والآخرة، من خلال تلك الروح المسلمة التي تتميز "بشفافية" لا نظير لها(1).
وهذا الـتـصـور الإسـلامــي لا يتأتى للنفوس والعقول المريضة التي فتحت أبوابها لجراثيم الأفكار والتصورات المنحرفة عن منهج الإسلام. كما أنه لا يحول دون التأمل الشامل لكل ما يدور في هذا الوجود، بل إنــه يحقق هذا التأمل وما هو أبعد منه مما ينتظر الإنسان في الآخرة.. ولهذا كان الأديب الإسـلامي متمـيـزاً عن غيره من أصحاب الاتجاهات الأخرى بإمكانية التصوير الأدبي لما يختلج في نفسه مـن شـــوق إلى الآخرة بما فيها من نعيم مقيم، وبما فيها من عذاب أليم - نسأل الله السلامة - (2).
بل إن ما ورد عن النبي -عليه الصلاة والسلام- أن فـي الـجـنـة مـا لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، يـعـطـي الأديب الإسلامـي مـسـاحـات شاسـعة رائعة من الخيال الواعي لتصوير خلجات قلبه نحو ذلك النعيم العظيم.
وما كنت أظنُّ مسلماً سيقف متردداً أمام هذا المصطلح من حيث صلاحيته للوجود والبقاء، وقد عجبت كلَّ العجب لأحدهم عندما قال في مهرجان شعري عقد في الرياض : إذا قلنا الأدب الإسلامي، فكيف نعبِّر عن الوردة الجميلة والمنظر الطبيعي الخلاب؟؟ عجبت له وأشفقت عليه من هذا التصور الناقص والفهم الكسيح لمعنى اصطلاح الأدب الإسلامي.
ولا شك أن هـذا الـقـائـل وأمـثـالـه يبـنـون عـلـى هـذا الفهم القاصر مواقفهم الرافضة لهذا المصطلح، ولو أعطى هذا القائل لنفسه فرصة التأمل والـتـفـكـيـر لعرف مدى النقص الكبير لديه في الاستيعاب. وإلا فإن نظرة عاجلة إلى كتاب الله الـكـريـم، وسـنـة الرسول -عليه الصلاة والسلام-، تؤكد أن التأمل الواعي، والشمولية في النظرة من أهم سمـات الـمنهج الإسلامي.
وأعـتـذر إلـى الـقـارئ الكريم من الإطالة في هذه التوطئة وأنتقل إلى مناقشة الشبهات التي ذكرتها من قبل.

الشبهة الأولى :

يعترض البعض على مصطلح الأدب الإسلامي بقوله: إننا بهذه التسمية نلغي الأدب العربي، ويرى أنَّ هذا جناية على الأدب العربي الذي أعطى على مدى قرون طويلة وما يزال، ونجيب عن هذا بما يلي :

1- لا يعني مصطلح الأدب الإسلامي إلغاء الأدب العربي، وهذا الربط بين الأمرين ناتج - في نظري - من تلك الرؤية الناقصة والفهم الكسيح لهذا المصطلح، وإن المراجعة السريعة لما كتبه نقاد الأدب الإسلامي تثبت خطأ هذا الزعم، فما من واحد من النقاد الإسلاميين قال بالغاء الأدب العربي على الإطلاق، ويمكن أن تراجع الكتب التي نشرت في هذا المجال لكتّاب مقتدرين أمثال د. عبد الرحمن رأفت الباشا في كتابه "نحو مذهب إسلامي في الأدب والنقد"، ود. عبد الباسط بدر في كتابيه "مقدمة لنظرية الأدب الإسلامي" و "مذاهب الأدب الغربي - رؤية إسلامية" ود. عماد الدين خليل في كتابيه "في النقد الإسلامي المعاصر" وغيرها من الكتب التي نشرتها رابطة الأدب الإسلامي.

2- قلنا إن الأدب الإسلامي هو "التعبير الفني الهادف عن وقع الحياة والكون والإنسان على وجدان الأديب من خلال التصور الإسلامي". فالتصور الإسلامي هو القاعدة التي يقوم عليها هذا الأدب، ولهذا فإن بين الأدب الإسلامي والأدب العربي عموماً وخصوصاً.

فالأدب الإسلامي أعم من حيث شموليته لكل أدب انبثق من التصور الإسلامي سواء أكان أدباً مكتوباً بالعربية أم بغيرها من اللغات الأخرى التي يتكلم بها المسلمون في العالم، وهو أخصُّ لأنه لا يطلق إلا على الأدب المنبثق من التصور الإسلامي، والأدب العربي أعم من حيث أنه يشمل كلَّ ما كتب باللغة العربية على اختلاف المناهج والأفكار فهو يطلق على الأدب الاشتراكي والوجودي، واليساري، والقومي والإسلامي، ما دام مكتوباً بالعربية، كما أنه أخصُّ لأنه لا يشمل الأدب المكتوب باللغات الأخرى فإذا كانت قصيدة بالأوردية مثلاً وكانت من خلال تصور إسلامي كقصائد محمد إقبال، فإني أسميها أدباً إسلامياً، ولا يصح أن أسميها أدباً عربياً وهكذا.

وبناءً على هذا التصور الإسلامي، فما كان من الأدب العربي منبثقاً من الرؤية الإسلامية أو متفقاً معها فهو أدب إسلامي، وما كان خارجاً عنها فهو أدب غير إسلامي، بل إن النصوص الأدبية التي لا تنبثق من التصور الإسلامي أساساً، ولكنها لا تتعارض معه تكون مقبولة في الأدب الإسلامي.

إن محمد إقبال شاعر إسلامي، وهو باكستاني، وإن محمد محمود الزبيري شاعر إسلامي وهو عربي يمني، ولكن صلاح عبد الصبور ليس شاعراً إسلامياً وهو عربي مصري وهكذا.. ولا يستطيع عاقل منصف أن يقول إن أدب اليسار

العربي أدب إسلامي. أو يقول إن أدب القومية العربية بمفهومها الضيق أدب إسلامي، بحجة أنه كتب بالعربية.

ومن هنا كانت شبهة "إلغاء الأدب العربي" باطلة من أساسها، وإنما يروِّج لها جاهل أو مغرض، بل إن صدور كلمة إلغاء في مقام الأدب دليل على عدم الوعي، فإنه لا يمكن لأحد أن يلغي اتجاهاً أدبياً مهما كان انحرافه، والأدب الإسلامي لا يملك قرار مصادرة الآداب الأخـــرى، وليس هنالك من يملك هذا الأمر من البشر، وإنما هو منهج واضح، يرسم أمام الأجيال المـسـلـمـة طريقاً أدبياً سليماً حتى لا يتخبطوا في طرق الآداب المنحرفة عن منهج الإسلام، وشتان بيـن هــذا وبين دعوى "الإلغاء" وهناك فرق كبير بين من يرفض أمراً لأنه يتعارض مع ما يؤمن به، وبـيـــن من يلغي ذلك الأمر، إن الأدب الإسلامي يرفض الآداب التي تخالف تصوره الشامل، ولكنه لا يلغيها.

إنه يرفض أدب محمود درويش مـثـلاً لأنه لا ينبثق من التصور الإسلامي، وإنما ينبثق من التصور اليساري، ولكن الأدب الإســـلامي لا يلغي شعر محمود درويش، إن مدلول كلمة الإلغاء هو "الشطب الكامل والمصادرة" وهـذا لا يتأتى لبشر، وأكبر دليل على ذلك ما بذله أصحاب الاتجاه اليساري "التقدمي" في عالمنا العربي من جـهـود كـبـيـرة لـمصادرة الأدب الإسلامي وإلغائه بحجبه عن الناس وممارسة الإرهاب الثقافي ضده في الـمـلاحق والصحف الأدبية، ولكنهم لم يستطيعوا ولن يستطيعوا - بإذن الله -، وأضرب مثلاً بالكاتب الروائي والمسرحي الإسلامي علي أحمد باكثير - رحمه الله - فقد حورب حرباً شعواء مـــن قبل اليساريين وحالوا دون أعماله ودون النشر ! لا في نطاق ضيق يكون خارجاً عن إرادتـهـم، ومـــع ذلك فها هو باكثير حي في عالمنا الإسلامي بأدبه، وها هي أعماله تطبع من جديد ويتلقفها القارئ بلهفة وشوق، ومثل هذا يقال عن محاولات أصحاب "الاتجاه العلماني" في الأدب الرامية إلى إلغاء الأصوات الإسلامية ومع ذلك فإنهم عاجزون، لأن فكرة الإلغاء غير واردة أصلاً في مجال الأدب والثقافة.

إذن فالأدب الإسلامي مظلة كبيرة يستظل بها أصحاب التصور الإسلامي، وهي قادرة على إيواء كـل أدب يـتـفـق مـــع هذا التصور، ولكنها ترفض ما يصادم تصورها وفرق كبير بين الرفض والإلغاء(3).

الهوامش:

1- انـظـر كـتـاب "الإنسان في الأدب الاسلامي للدكتور محمد عادل الهاشمي ص 9 وما بعدها".

2- انظر كتاب "منهج الفن الإسلامي للأستاذ محمد قطب، ص 52 وما بعدها".

3- راجع مـا كـتـبـه د. عـبـد الباسط بدر في كتابه القيم "مقدمة النظرية الأدب الاسلامي ص : 84".

شعر

الحريق في البوسنة

عوض هاشم

شب حريقٌ في البوسنة ،
والتهب الهرسكْ .
واضطرمت نيرانٌ ملعونة..
وانتشرت أحقاد.. مدفونة..
باركها "بطرسْ" :
وتغامض عنها يضحكْ
عم الدنيا "سام" .
***
شب حريقٌ في البوسنة
يا عرباً.. يا أهلَ الدارْ..
يا ملياْرْ..
قطرةُ ماءٍ من واحدكم
تكفي كي تذوى النار
***
كم أُخفي خَجلي كالمرأةْ
حين تداهمُني الأخبارُ السودْ...
لا عذرَ يْبرِّئني من عارِ العجزْ
لا يستر ضعفي "إنفاقٌ" أو "جودْ"
فالجرحُ عميق.. لا تسعفُه أَرغفةُ الخبزْ..
الكمدُ القاتلُ يحرقْني
أتساءَلْ : أتجادلْ!!
هاتوا يا صحبي أجوبة تعقلْ !!
كيف يصيرُ الباطلُ حقاً ؟؟
كيف تميلُ الكفةُ كل الميْل ؟؟
والأمةُ تُغمض أَعينَها.. ذُلاً ..
هل صِرنا حَقاً كغُثاءِ السَّيل ؟؟
***
عذراً.. يا "علي عزتْ" .. ليس معي "جيش" :
صفحاً يا "بيجوفيتش"..
يا وطناً مسفوح الإنسانْ..
إني مثلك.. تقصفني "الجُرذان"
أشهد أني قد أوصلتُ الأنباءْ..

وأَنِّي قد ردَّدتُ مآسيكمْ كل مساءْ..
وأن نداءَ الغوثِ الصادرِ من "سراييفو"
داستْه الأهواءْ
صبراً.. يا نسل "الفاتح"..
لا تركَنْ إلا لله الفردْ..
ما من خوْضِ المعركةِ الكُبرى بُدْ
فالصربُ ذراعٌ للشيطانِ الوغْدْ
ما هم إلا بعضُ أصابعْ
من أصل اليدْ...
إنْ همْ إلا واجهةٌ ،
والحقدُ الأسودُ ممتدْ..
ينتشرُ سريعاً "كالسرطان".. يمتدْ
يمتدْ...
***
ما لم تصْحُ الأمة فوراً...
ما لم تُشرق فيها شمس...
ما لم ينْبُتْ فيها مغزىً للغدْ..
ما لم تَبلُغْ سِنَّ الرُّشْدْ..
لنْ يوقف هذا الخَطر القادم.. أعلى سدْ .

المسلمون والعالم

(ملف الصومال)

ماذا يجري في الصومال ؟

مندوب البيان في الصومال

تقع الصومال على رأس القرن الأفريقي في منطقة استراتيجية تشرف على شرق القارة الأفريقية ، وتسيطر على مضيق باب المندب، وتطل على شبه الجزيرة العربية حيث مهبط الرسالة ومنابع النفط . ولهذا تسابقت الدول الاستعمارية على هذه المنطقة، وازداد تنافسها ، حتى عقد مؤتمر برلين في عام 1884 م لاقتسام هذه الغنيمة ، فقسمت الصومال إلى خمسة اقسام :

1- بريطانيا أخذت قسمين .
2- فرنسا أخذت قسماً .
3- إيطاليا أخذت قسماً .
4- الحبشة أخذت قسماً .

وبعد مغادرة المستعمرين أرض الصومال ضمت بريطانيا قسماً للحكومة الكينية ، وضم أقليم أوجادين الصومالي للحبشة، وجـعـلـت فـرنسا نصيبها السابق دولة مستقلة اسمها جيبوتي وأقامت عليها قواعدها العسكرية. كل ذلك مـن أجـل تمـزيـق الجسد الصومالي الذي يتميز بنسبة 100% من المسلمين .

ولـكــن المؤامرة لم تقف عند هذا الحد ، ففي عام 1969 م تولى الجنرال محمد سياد بري السلطة بانقلاب عسكري ، وفي سبتمبر 1970 م تبنى الاشتراكية العلمية ، وفي عام 1976 م أسس الحزب الاشتراكي الثوري الصومالي وألغى جميع الأحزاب السياسية .

منذ أن تولى زياد بري السلطة وهو يعلن حربه على الإسلام وملاحقته الدعاة والعلماء.. فقد أصدر قـانـون الأحــوال الشخصية وأعلن أمام الملأ أن الإسلام قد ظلم المرأة وهو ينتصر لها ويسويها بالرجل في جميع المجالات في الإرث والنكاح والطلاق وغير ذلك !

في أول سنة 1975م نشرت جريدة نجمة أكتوبر الحكومية زعمه : أن خمسين في المائة من القرآن الكريم منســوخ ، إلا أن العلماء لا يفهمون ذلك ! ولما اعترض بعض العلماء والدعاة وأنكروا عليه ذلك زج بهم في السجون وسامهم سوء العذاب ، وأخذ عشرة من أجلة الدعاة وأحرقهم بالنار أمــام الملأ.. وكان من عادته أن يتهكم بالعلماء ويسميهم بالسفهاء ، وعندما واجهه أحد العلـمــاء بالنصيحة قال له زياد بري بكل وقاحة : أكره الناس إليّ من قال لي اتق الله ، وخوفني بالله.. فهل الله سبع يأكل الناس ؟!

وفي الثمانينات الـمـيـلاديـة غـيــرَّ زيـاد بري من أطروحاته وشعاراته السياسية وتوجه إلى المعسكر الغربي ، وتحولت القاعدة العسكرية السوفيتية في ميناء بربرة إلى قاعدة أمريكية . وقد فتح زياد بري أبواب الصومال للمنظمات التنصيرية التي بلغ عددها في آخر عصره 86 منظمة .

وفـي 9/7/1989 قـتـل أحد الأساقفة الإيطاليين المشهورين ، ويرجح كثير من المتابعين أنَّ المخابرات الصومالية هي التي قتلته، لأنــه أعـطــى أســراراً كثيرة تتعلق بتجاوز السلطة لحقوق الإنسان في الصومال . ولكنه ألصق هذه التهمة بالإسلاميين واعتدى على كثير من الشباب والدعاة... فأعلن العلماء والدعاة استنكارهم لذلك فكانت النتيجة أن أرسل حرسه الخاص في 12/1409 إلى جوامع العاصمة بعرباتهم المصفحة ، وأطلق النار بصورة عشوائية على المصلين ، فقتل أكثر من ألف شخص . وأعدم خمسين شخصاً من الدعاة والأئمة على أثر هذه المذبحة أيضاً .

ولما شعر زياد بري بانخـفـاض قـدرتــه على السيطرة في البلاد مع مرور الأيام ، حاول أن يثير النعرات القبلية بين منافسيه ، ويدعم قبيلة على حساب القبائل الأخرى ، ثم ينقلب عليها ليدعم قبيلة منافسة أخرى، حتى أشعل

الخلافات القبلية في جميع البلاد . وبسبب الدكتاتورية المتسلطة والفساد الـسـياسـي الكبير الذي تميز به عهد الرئيس زياد بري كثر التذمر الشعبي والرسمي، وفي مايو 1990م أصدر 114 رجلاً من زعماء القبائل بياناً اشتهر باسم بيان مانيفستو مـقـديـشـو دعــوا فـيـه إلى عزل سياد بري وتشكيل حكومة ديمقراطية جديدة.
وفي 2 اكتوبر 1990م وقعت بعض حركات المعارضة اتفاقاً سياسياً ، وبدأت معارك عسكرية تمكنت بموجبها من طرد زياد بري من العاصمة في 28/1/1991 م. وبخروج بري من السلطة ازداد اشتعال الفتيل الذي أطلق شرارته الأولى ، حتى انفجرت البلاد كلها ، واستعرت حرب أهلية قبلية بين جميع الأطراف ، وتحولت البلاد إلى ميدان للسلب والنهب القوي فيها يأكل الضعيف.. فكانت هذه نتيجة حتمية لنظام الديكتاتورية والتلسط وحرمان الشعوب من حقها الشرعي في الشورى وإبداء الرأي .

القبائل والأحزاب المتناحرة داخل الصومال :

بعد خروج زياد بري من السلطة تكونت أحزاب كثيرة يصعب حصرها ، لكنني سوف أبرز هذه الأحزاب:
1- المؤتمر الصومالي الموحد (U.S.C) بقيادة الجنرال محمد فارح عيديد ، وهو من قبيلة هويت فخذ هبرقدر . ويعتبر هذا الحزب من أقوى الأحزاب ، ويسيطر على جزء من العاصمة مقديشو وعلى ثلث البلاد تقريباً .
2- الجبهة الديمقراطية لإنقاذ الصومال (S.S.D.F): زعيمها العقيد عبد الله يوسف والجنرال محمد أبشر من قبيلة مجيرتين ، وتسيطر على ميناء بيصاصو وقرو وجالكعيو . وقد حصل بين هذه الجبهة والإسلاميين صراع عنيف في بيصاصو ، وتشهد المنطقة الآن صراعاً عنيفاً بين هذه الجبهة وبين جيوش محمد فارح عيديد .
3- الجبهة الوطنية الصومالية (S.N.M): ويتزعمها عبد الرحمن أحمد علي تور من قبيلة إسحاق وتسيطر على منطقة الشمال الغربي الصومالي ، وقد أعلنت هذه المنطقة استقلالها عن الجنوب وأسست دولة مستقلة عرفت بجمهورية أرض الصومال وعاصمتها مدينة هرجيا Somali Land Republic of .
بالإضافة إلى جبهات أخرى كثيرة وصغيرة لا أهمية لها وبعضها مجرد أسم ولافتة فقط .
وقد حصلت عدة محاولات للتقريب بين هذه الأحزاب ، من أهمها مؤتمر جيبوتي الذي عقد خلال الفترة 15-19 يوليو من عام 1991م. وقد توصل المؤتمر إلى اختيار رئيس الجمهورية من أعضاء المؤتمر الصومالي الموحد لمدة عامين ، ووقع ترشيحهم على علي مهدي على أن يتم اختيار نائبه الأول من الحركة الديمقراطية الصومالية ، ونائبه الثاني من الحركة الشعبية

الصومالية وجبهة الإنقاذ الصومالية الديمقراطية بالتبادل . ويكون رئيس الوزراء من الجبهة الوطنية الصومالية .
ولكن هذه الاتفاقية انهارت كما انهارت الاتفاقيات الأخرى بسبب الصراع على السلطة في المؤتمر الصومالي الموحد بين الجنرال محمد فارح عيديد وعلي مهدي ، ثم ازدادت جذوة الحرب وكثر التنافس على السلطة على حساب الأبرياء الذين يتساقطون تحت نيران الجنود والخونة .

الاتجاه الإسلامي :

يوجد في الساحة الصومالية عدد من الاتجاهات الإسلامية المباركة التي تميزت بدعوتها العامة ، فانضم تحت ألويتها عناصر من قبائل متنوعة انصهرت في بوتقة واحدة ، ولم تفرق بين قبيلة وأخرى.. ومن أبرز الاتجاهات الإسلامية :
أ- الاتحاد الإسلامي الصومالي : ويعتبر من أنشط الاتجاهات الإسلامية وأكثرها اتساعاً ، وقد أقام المعسكرات التدريبية في عدد من المواقع . وخاض معارك عديدة مع الجبهة الديمقراطية لإنقاذ الصومال في مدينة بيصاصو ، ومع المؤتمر الصومالي الموحد في إقليم جدو ، وكانت هذه المعارك في مجملها موفقة مباركة ولله الحمد . ويلقى هذا الاتجاه ترحيباً جيداً من الأوساط الشبابية خاصة لتميزه السلفي والمنهجي .
ب- الحركة الإسلامية الصومالية : وهي حركة نشطة ركزت على الجانب الدعوي تركيزاً كبيراً ، ولم تر الدخول في الصراعات العسكرية القائمة في الساحة الصومالية .

انهيار الصومال :

لما بدأت الحروب الأهلية واستعرت نيرانها في أرض الصومال استغلت القوى الغربية هذه الفرصة لإنهاك الصومال المسلم وتمزيقه مرة أخرى ، فوقفت موقف المتفرج على الرغم من دعوتها إلى السلام في ظل ما يسمونه بالنظام العالمي الجديد . بل بدأت بتغذية الصراع القبلي وإثارته. وقد ذكر الكاتب الإيطالي بال ترميل في مدينة تورينو الإيطالية بأن الأوربيين هم السبب في استمرار المشكلة الصومالية وتغذيتها.. كما ذكر مراسل القناة الأخبارية C.N.N ، أن الحكومات الغربية توجه إمدادات الإغاثة الإنسانية للجيوش المتصارعة قصداً لتغذية الصراع وتصعيده بين القبائل !! وقد وصلت الصومال من جراء ذلك إلى حالة انهيار كامل في بنيتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، فلا يوجد أي أثر من آثار الحياة الإنسانية داخل الصومال ، حيث نهبت خيرات البلاد وتسابقت الأحزاب المتناحرة على بيع الممتلكات العامة لشراء الأسلحة والذخيرة ، فالسلاح هو سيد الموقف داخل الصومال ، فلا أثر للكهرباء أو الماء أو غيرها هناك ، لأن كل شيء قد نهب وبيع . فقد كان الصومال على سبيل المثال يملك ثاني أكبر محطة لتصفية البترول في القرن

الأفريقي وتقدر قيمتها بخمسمائة مليون دولار ، ولكنها بيعت بمليون دولار أمريكي فقط . بل وصل الحال ببعض الأحزاب أن نبشت الأرض واستخرجت أسلاك الكهرباء والتمديدات الأرضية لبيعها في السوق السوداء . حتى بلغت الخيانة ببعض الأحزاب أن وقعت اتفاقيات مع عدد من الشركات الإيطالية والفرنسية والسويسرية والأمريكية لدفن آلاف الأطنان من المواد الكيميائية السامة والنفايات النووية في أرض الصومال.. لكي تستمر آثار هذه الحرب ليس على هذا الجيل فحسب ، بل على الأجيال القادمة..! وأصبحت هذه الدول تتسابق في إرسال هذه النفايات.. وتتباطأ في إرسال المعونات الإغاثية ، بل تختلق المعاذير والحجج لكي تمنع الإغاثة .
وقد كانت الأحزاب القبلية المتناحرة تمارس أبشع ألوان الوحشية من التدمير والنهب وانتهاك المحارم والأعراض ، بل والتمثيل بالجثث . وهذه الفوضى ساعدت على انتشار اللصوصية وقطع الطرق والاعتداء على العزل والآمنين . وهكذا صمتت الدول الغربية طوال هذه المدة لكي تنهار الصومال تماماً ، ومن ثم تتدخل الدول الغربية لتفرض الرجال والحكومة التي تريد ، وتصبح المنطقة مهيأة لإقامة القواعد العسكرية الأمريكية والأوربية . فلا توجد قوة تستطيع أن تهدد المصالح الغربية.. !!

المهاجرون الصوماليون:

اضـطـــــر الشعب الصومالي الأعزل إلى الهرب خوفاً من نيران الحرب الأهلية التي أهلكت الأخـضـــر واليابس . فكان كثير من الصوماليين يفر من مدينة إلى أخرى ، حتى إذا لحق بهم الحـــــــــرب مرة أخرى اضطروا للفرار إلى مدينة ثالثة.. فأصبح الشعب الصومالي كله مهاجراً سواء كان في الداخل أو في الخارج . فالقادرون منهم وخاصة أصحاب التخصصات العلمية هاجـــروا إلى أوربا وأمريكا وكندا ، ويقدر عددهم بحوالي مأتى ألف صومالي . وأما عامتهم فقد استقر بهم المقام في الدول المجاورة مثل كينيا وأثيوبيا وجيبوتي واليمن.. بعد أن أنهكتهم الهجرة وهدهم المسير .
رأيت أحدهم على الحدود الصومالية الكينية وليس معه إلا ولده البـالــغ من العمر خمس عشرة سنة ، وقد شحب وجهه وغارت عيناه وتشققت قدماه.. فـسـألته عن حاله ؟ فجلس على الأرض ووضع يده على رأسه وأغمض عينيه.. ثم أحـضـــــرنا له قليلاً من الماء ، فلما شرب وارتوى ، قال لي : اسبوعان ، كنا نمشي على الأقدام ، هلكت أمي وزوجتي وثلاثة من أطفالي ، ولم يكن لي القدرة على دفنهم.. وكما ترى لم يبق معي إلا هذا الولد ؟!!
قد بلغ عدد المهاجرين إلى كينيا حوالي خمسمائة ألف لاجىء توزعوا في عدة مخيمات . كانوا يظنون أنهم فروا من الموت ، لكنهم في حقـيـقــة الحال فروا من الموت السريع تحت نيران الجنود إلى الموت البطيء حيث الجوع

والمرض . وقـبل أن نبدأ بذكر أحوالهم ، هذه نظرة سريعة لأحوال المنطقة التي هاجروا إليها :
- يمر الشمال الشرقي الكيني المجاور للحدود الصومالية - وهي المنطقة التي هاجر إليها الصوماليون - بجفاف شديد منذ ثلاث سنوات تقريباً لانقطاع الأمطار .
- يوجد في المنطقة مائة سد لمياه الامطار جفت تماماً .
- 80% من الأغنام والأبـقـــار و40% من الإبـــل قد هلكت في منطقة وجير الكينية بسبب الجفاف .
- منطقة وجير مساحتها 56500 كم^2 يعيش عليها 126 ألف نسمة من الأهالي ، يضاف إليهم 20 ألف نسمة من المهاجرين الصوماليين لا يوجد فيها إلا 18 بئراً ارتوازياً عاملاً ، أما بقية الآبار وعددها ثلاثون بئراً فقد تعطلت .
- 20% من الأطـفـــــال دون سن الخامسة ماتوا خلال شهري شوال وذي القعدة الماضيين بسبب أمراض سوء التغذية .
فــإذا كانت هذه هي حالة أهل البلد الأصليين فكيف يكون حال المهاجرين الصوماليين إلى هــذه المنطقة..؟ وإليكم الإحصاءات التي تدل على عمق المأساة وآثارها الواســعــة بـيـــن المهاجرين :
- عدد الوفيات حوالي 200 حالة يومياً.. وقد بلغت في بعض الشهور الماضية إلى خمسمائة حالة أو أكثر.
- 300.000 طفل ماتوا جوعاً ومرضاً داخل وخارج الصومال منذ بداية الأزمة .
- 55% من الأطفال مصابون بأمراض سوء التغذية .
- 30% من الأطفال دون سن الخامسة يحتاجون إلى تغذية طبية بالسوائل .
- 30% من الصوماليين مصابون بأمراض الجهاز التنفسي والسل .
- 80% من النساء الحوامل يمتن أثناء الولادة لعدم وجود الرعاية الصحية الأولية .
- 90% من المهاجرين لا يملكون خياماً للسكن فيها وإنما يسكنون في بيوت من القش .
وبعد هذه الإحصاءات يتبين حجم المأساة ، فالأحوال بلغت حداً لا يوصف من التردي والمجاعة ، حتى إني رأيت امرأة في مخيم صوفتو في أثيوبيا تأخذ جلداً مجففاً و تدقه . . فلما سألتها عنه ؟ قالت : إنها تطبخه بالماء وتطعمه لأولادها الأيتام ..!!
وفي مخيم آخر رأيت رجلاً قد جفف دم إحدى الحيوانات بعد ذبحها حتى تجلط وتصلب .. فلما سألته عنه ؟ قال : إنه طعامه هو وأولاده !
ورأيت رجلاً مع زوجته في مخيم مانديرا الكيني في حالة يرثى لها ، فدخلت في خـيـمـته فلم أجد فيها أثراً لطعام ، فسألته : ماذا أكل في هذا اليوم ؟

فقال : لا تسلني عن اليوم ، ولا عن الأمس ، ولا عن الذي قبله ، فلي ثلاثة أيام لم أذق طعاماً قط .. !!
وجلست في أحد الايام في مقبرة صغيرة في مخيم مانديرا - وهي مقبرة من بـيـن عـــدد من المقابر المنتشرة في المخيم - ما بين الساعة الثامنة صباحاً إلى العاشرة صباحاً ، دفن خلالها 150 نفساً.. فكيف يُتصور العدد في بقية اليوم .. وكيف في بقية المقابر؟!!

حماية إغاثة أم حماية مصلحة

محمد الشيخ عثمان

إن مما لا شك فيه أن ما يحصل في الصومال هو نتيجة الابتعاد عن نهج الله القويم وشرعه الحنيف لمدة طويلة قـبـل الاستقلال وبعده . ومع أن هذا الشعب يدين بالإسلام 100% إلا ما ندر ، ومع أنهم كـلـهـم سـنــة ويـتـمـذهبون بالمذهب الشافعي ؛ إلا أن النعرات القبلية وصـلـت بهم إلى التقاتل الجماعي ونهب الأموال وانتهاك الأعراض، وبـهـذا فـقـد الأمــن والاسـتـقـرار وأصبحـت النتيجة الموت الجماعي من أثر المجاعة ، والهجرة الجماعية إلى حدود كينيا وأثيوبيا والدول الغربية كبريطانيا وإيطاليا .
ومع أن أي مسلم يألم أشد الألم لما يحصل لهذا الشعب المنكوب ؛ إلا أن التدخل الأمريكي ليس حلاً للقضية، وليس حماية للإغاثة كما ادعوا، وإنما حماية مصلحة الدول النصرانية عامة ونصارى شرق أفريقيا خاصة . لذا فموقف المسلم من هذا التدخل لا بد أن يكون مبنياً على الآتي :
1- إن النظام الأمريكي لا يريد خيراً للمسلمين، بل يـبـطـن الـشـر والحـقــد عـلـى عموم المسلمين، والأمثلة أكثر من أن تحصى ، ومعاناة شعب البوسنة المسلم والشعب الفلـسطـيني مثال بسيط على ذلك .
2- لقد عودتنا أمريكا أن يكون لها برنامج معلن وآخر غير معلن ، فادعاؤهم أنهم يدخلون الـصــومال لحماية الإغاثة لا يختلف عن ادعائهم السابق في الخليج العربي أنهم يدخلون لحماية حدود معينة في بلد ما ، ثم ما لبثوا أن غيروا من أهدافهم .
3- كانت أمريكا ضد أي تدخل عسكري في الصومال لمدة سنتين، ويـبـدو أنـهــم كــانـوا يهـدفــون إلى إطالة أمد التحرير بين الفئات حتى تتدهور الأوضاع وتأتي الفرصة المناسبة للتدخل ، وذلك بعد تمهيد الإعلام الغربي واستقطاب الرأي العام .
4- إن قوة 30 ألف من المارينز إضافة إلى قوات أخرى ، من كندا 900 ، استراليا 900 ، فرنسا أكـثـر من 2000 ، إيطاليا 1000، إلى غير ذلك.. كل هذا يشير إلى أن العملية أكبر من عملية حـمـايــة إغـاثـة ، وإذا عرفنا أن منطقة المجاعة ليست منطقة كبيرة (Baidor . Bardhera) وأنها ليست كــل

الـصـومــال ؛ يتبين أن الهدف الحقيقي ليس حماية الإغاثة وإنقاذ متضرري الصومال ، وإلا: لماذا لا يرسـلـون نصف هذه القوات إلى البوسنة ؟ مع أن وضع البوسنة أسوأ بكثير من الصومال .
5- إن الإعلام الغربي كان يتكلم في الفترة الأخيرة عن تزايد الأصولية في الصومال(1) . وهـــذه الـكـتابات والتقارير يبدو أنها أقنعت جورج بوش بالتدخل لمحاربة المد الإسلامي القوي في الصومال .
وقد ذكرت مجلة الوسط في عددها رقم 46 تاريخ 14/12/1992 أن مصادر مسؤولة في إدارة جورج بوش أكـدت لـهــم أن مــن الجـوانـب غـيـر المعلنة محاربة المجموعات الأصولية المسلحة ، وعلى رأسهم الاتحاد الإسلامي الذي هو أكبر تجمع إسلامي في البلاد . فماذا تريد أمريكا من الاتحاد الإسلامي مع أنه لم يشترك يوماً ما في أنواع الفساد التي ترتكبها العصابات المسلحة الأخرى مثل النهب والقتل والاغتصاب وغير ذلك ؟ والجواب واضح وهو أن الاتحاد الإسلامي نجح في توعية أعداد كبيرة من الشعب ، وطرح الحل الإسلامي بعد أن فشلت جميع الشعارات الأخرى في المنطقة . فالإسلام هو الحل الوحيد الذي يجمع شتات هذا البلد ويجمع شمل شعبه المنكوب ، إضافــة إلى أن قيام دولة إسلامية دستورها الكتاب والسنة سيكون له أثر طيب على أحوال المسلمـيــن في الدول المجاورة : كالحبشة وكينيا وإرتريا .
6- إن من الأسباب الغير المعلنة للتدخل الأمريكي السيطــرة على البوابة الجنوبية للبحر الأحمر أي مضيق باب المندب الصومالي . كما أن قربه من الـمنطقة الإسلامية تساعده على تنفيذ مخططاته تجاه الأمة ، وبعبارة أخرى : فأمريكا ترسل رسالة عن طريق تدخلها في الصومال أنها من الممكن أن تفعل نفس الفعل في بعض أجزاء من العالم الإسلامي .
7- إن توجه السودان إلى الإسلام أثار قلق أمريكا والغرب، ووجودهم قرب السودان سيتيح لهم فرصة التدخل في شؤون هذا الشعب المسلم. وأخـيــراً فــإنـني أرجـو من المسلمين عدم تصديق ما ينقل عبر وسائل الإعلام الغربية عن الصومال ، مثل ادعائهـم أن عامة الشعب يرحب بالوجود الأمريكي ! وهذا غير صحيح . ومع إن الشعب يريد مخرجاً للأزمة ، إلا أنه كان يتوقع أن تأتي المبادرة من الدول الإسلامية ، مثل ما فعلت دول غرب أفريقيا في ليبيريا .
بالإضافة إلى الأمور المذكورة هناك أضرار اجتماعية متوقعة من الوجود الأمريكي . فالجيش الأمريكي معروف بالانحلال ، وقد نقلت الجرائد الغربية أن الجيش الأمريكي ترك وراءه 23 ألفاً من اللقطاء في الفلبين ، أضف إلى هذا أن أعداداً كبيرة منهم مصابون بالإيدز والشذوذ .
وإني وإن كنت ألوم شعبي أولاً لإتاحة الفرصة لمجيء هؤلاء إلى بلدي ؛ إلا أنني اعتقد أن القيم الإسلامية ما زالت جذورها موجــودة عند الأفراد العاديين ، وأكبر مثال على ذلك قصة البنت الصومالية التي نقلتها التلفــزة

البريطانية يوم 14/12/1992 وهي تضرب من جميع أفراد الشعب بالنعال لأنها ذهبت مع الجنود الفرنسيين . وذكرت بعض الجرائد أنها ماتت إثر الضرب . ولعل مثل هذا الحادث يكون حافزاً للشعب الصومالي بأجمعه لاستنهاض غيرته وبعثها، كي يلم الصوماليون شملهم ويعودوا إلى رشدهم ويضمدوا جراحهم ، ويظلوا أوفياء لعقيدتهم ودينهم وتاريخهم .

((واتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً))

الهوامش:

1- الواشنطن بوست 12/11/1992م، وكالة رويتر 17/11/1992م، وغيرهما من المجلات والجرائد الغربية .

أمريكا والمستنقع الصومالي

د. مالك الأحمد

وصلت طلائع القوات الأمريكية إلى الصومال رغبة في "إعادة الأمل"!! إلى الشعب المسحوق من الحرب الأهلية من جهة والمجاعة من جهة أخرى، وتعالت الأصوات هنا وهناك بين مؤيد لهذه الخطوة الجديدة وبين معارض لها ، ففي الصومال رحب طرفاً النزاع الرئيسيان بهذه القوات ، بينما اعترض عليها الاتحاد الإسلامي الصومالي ، وتعالت الأصوات بأن "الأصوليين دوماً أهل اعتراض وأصحاب نظرة شك وتوجس" .

وكتب الكثيرون حول هذه القضية ومنهم من حلل الأمر بأنه استعمار جديد (وهو كذلك) ومنهم من أوله بأن الأمر لا يعدو أن يكون يقظة ضمير أميركي،وبما أن الدعاة "الأصوليين" محل اتهام ونظراتهم محل توجس وفراساتهم محل اعتراض أحببت أن أعرض هنا مقتطفات لكتاب مختلفي المناحي والمشارب أحدهما غربي ، والآخر عربي علماني يؤكدان فيها التوجه الاستعماري للعملية وأنها لا تعدو أن تكون وجهاً جديداً لمخطط قديم.

يقول مايكل كلاف من مجلس العلاقات الخارجية في واشنطن :

"بعد مرور أقل من عامين على حصول آخر المستعمرات في أفريقيا - وهي ناميبيا - على استقلالها، من المرجح أن تكون الأمم المتحدة قد اتخذت أول خطوة يمكن أن تؤدي إلى إعادة استعمار الأمر الواقع إلى الدول الأفريقية التي على وشك الانهيار ، كما أن الولايات المتحدة التي بدا أنها على وشك التخلي عن أفريقيا ربما تجد نفسها منهمكة في شؤون القارة أكثر من أي وقت سابق" . ثم يضيف : "هناك إمكانية قوية وحقيقية في أن تقيم الأمم المتحدة وصاية على الصومال لفترة طويلة (صرح بطرس غالي بإمكانية هذا الأمر وأنه محل دراسة) . وهنا يكمن خطر الاستعمار من جديد ، ولكن بوجه إنساني ، لأنه سيعني في الواقع تولى الأمم المتحدة والولايات المتحدة المسؤولية الكاملة عن البلاد ، وعندها لا بد من تشكيل قوة شرطة وقوات

أمن جديدة، وإعادة بناء البنية الأساسية والوظائف، وتجنيد جيش من البيروقراطيين الدوليين وما إلى ذلك مما سيكون نظاماً استعمارياً رغم دوافعه الإنسانية" ثم يبين إمكانية توطين هذا المبدأ الاستعماري في أماكن أخرى من العالم الإسلامي : "وما هي إلا قضية زمن قبل أن تبدأ أجهزة الإعلام في تسليط الاهتمام على المناطق الأخرى من القارة المماثلة للصومال (مثل السودان) مع أن الصومال حالة استثنائية الآن . وسوف تكون وجهة نظر التدخل من أجل المساعدات الإنسانية وبالتالي عودة الاستعمار الجديد بهذا الشكل قوية جداً لا سيما وأن هناك في الغرب شبكة شاسعة من المنظمات الكنسية والخيرية التي يمكن أن تصبح مماثلة لتلك الجمعيات التبشيرية ولمحاربة الرقيق التي شهدناها في القرن التاسع عشر ، ومن المحتمل أن ينشأ تحالف شاذ غريب بين تلك المنظمات والمؤسسة العسكرية الأمريكية التي تبحث عن مهمات دولية جديدة لتبريرها" انتهى ما نقلته الشرق الأوسط عن لوس انجلس تايمز . وهذا رأي كاتب غربي بارز صاحب العديد من الدراسات والكتب في الشؤون الأفريقية .

وننقل هنا أيضاً وجهة نظر عربية قومية (ليست أصولية) حول التدخل الأمريكي في الصومال بقلم صلاح الدين حافظ حيث يقول :

"إن دور الأمم المتحدة كمنظمة عالمية قد تبدل هذه الايام ، فبعدما كانت - طبقاً لميثاقها الصادر في أعقاب الحرب العالمية الثانية وفي ظل نتائجها - مظلة لكل الأعضاء المتساوين في الحقوق والواجبات كاملي الاستقلال لا تملك سوى حركة التنسيق بين إيرادات الدول وسياسات الكتل ؛ أصبحت اليوم في ثوب مغاير ، ثوب يمنح قيادتها لدولة عظمى وحيدة هي الولايات المتحدة التي تبوأت وحدها هذا المنصب بعد أن أجهزت على الاتحاد السوفييتي ، وبعدما نفضت يدها من الحرب الباردة وتوازناتها ومنافساتها المعقدة ، ومن ثم فإن الأمم المتحدة (المنظمة العالمية) أقرب ما تكون اليوم إلى "مجلس شورى عالمي" للولايات المتحدة التي تأخذ من هذه الشورى ما تريد وتفرض هي ما تحب ، أليست هي القطب الأعظم الأوحد؟" ، ويتابع الكاتب : "وبصرف النظر عن أن إنقاذ دولة الصومال من زعمائها وميليشياتها المتقاتلة ، وإنقاذ الشعب الصومالي المطحون من المجاعة الرهيبة أمر مطلوب إنسانياً ؟ إلا أنه يلفت النظر التناقض بين السرعة والحماس الذين تم بهما اتخاذ قرار التدخل العسكري هذا وبين التباطوء - بل التواطؤ - والتقاعس في حالة البوسنة والهرسك وصولاً إلى حد التغاضي عن التطهير العرقي والمجازر الجماعية تحت سمع الجميع وبصره وبحجة واهية تدعي أن الوضع الجغرافي مختلف في الحالتين الأمر الذي يترجم عادة بأن التدخل العسكري سهل في الصومال الإسلامية الأفريقية صعب

في البوسنة الإسلامية الأوربية، ولعل في هذه المغالطة ما فيها من تمييز يخفي المخبوء" انتهى.
وهنا لا بد من توجيه إخواننا الدعاة في الصومال والسودان وأرتيريا وغيرها للحذر واليقظة من المخططات الاستعمارية الجديدة ، والتي باتت مكشوفة لدى الجميع وإن تسربلت بلباس المساعدات الإنسانية ، ولا بد أن يكون الجميع عند مستوى الأحداث وعياً وإدراكاً وحسن تصرف بعيداً عن الهيجانات العاطفية والتصريحات الانفعالية ، بل لا بد من أخذ الأمور بترو وحكمة كي لا نعطي لهم المسوغات - وهم لا يحتاجون إليها - لضرب التوجه الإسلامي في منطقة القرن الأفريقي ، خصوصاً بعد ظهور كثير من الأصوات في منظمات الإغاثة الصليبية ، وعلى رأسها الصليب الأحمر الدولي ، التي تحذر من خطر الأصولية في المنطقة بل وتحذر من خطر عمليات الإغاثة التي يقوم بها هؤلاء الأصوليون ، وقد سبق لهم كتابة تقارير تحذيرية لكثير من الجهات الغربية بل والإسلامية كي يخلو لهم الميدان لافتراس هذه الشعوب المسلمة الجائعة والتائهة .

@محمد الشرفي
ومشروعه التخريبي في تونس

أ- محمد الشرفي رمز التخريب :

إن من إفرازات سياسة الطاغية بورقيبة التعليمية ظهور نخبة من المثقفين العلمانيين المتغربين التي قبضت مقاليد التعليم الجامعي منذ انطلاقته في بداية الستينات ، ومن هؤلاء محمد الشرفي الذي كان متخصصاً في الدراسات الحقوقية ، ولكن السمة في أبحاثه معاداته المطلقة للثقافة والتشريع الإسلامي ، حيث إنه كان ينادي منذ الستينات "بإصلاحات تشريعية" تتعارض صراحة مع الأحكام الشرعية الصريحة والمُحْكمة ، مثل مناداته بالمساواة في الإرث بين الرجل والمرأة ، بالإضافة إلى مناصرته إلى كل ما ينادي به بورقيبة في إطار مشروعه التغريبي مثل "تحرير المرأة" والقضاء على الهوية العربية الإسلامية للبلاد التونسية،وبذلك نلاحظ أنه لا اختلاف في الرأي والتصورات الفكرية بين الشرفي وبورقيبة رغم المعارضة الظاهرية والشكلية التي أبداها الشرفي في عهد بورقيبة ، بل إن من مظاهر التطابق والتجانس الفكري بينهما تمسك كلاهما باللغة الفرنسية كلغة دراسة وإدارة في البلاد وهو الوجه الثاني العملي للمشروع التغريبي . ذلك بعد أن أطيح ببورقيبة في 1987م تعالت الأصوات المنادية بالتعريب في التعليم والإدارة ومختلف مناشط الحياة في البلاد، فكان من أول المعارضين لسياسة التعريب محمد الشرفي من موقعه في ذلك الوقت

كأستاذ محاضر في كلية الحقوق والـعـلـوم السياسية بتونس ، حيث شكل مع فئة من الفرنكفونيين تـيـاراً مـعـارضـاً لسياسة التعريب، ومن هؤلاء عبد الفتاح عمر رئيس جامعة تونس حالياً، وقد حقق مـشــروع الـتـعـريـب خـطـوات إيجابية في الأشهر الأولى بعد الإطاحة بالطاغية بورقيبة قبل أن تحصل الردة وتسقط البلاد بأيدي التيار العلماني نهائياً(*)، فوقع تعريب برنامج المرحلة الأولى لكلية الحقوق فكانت من المواقف المسجلة على الشرفي أنـه امتنع عن إلقاء المحاضرات باللغة العربية لشده تمسكه باللغة الفرنسية، وكرهه للغة العربية فتنادت شراذم الفرنكفونيين وأسست كلية الحقوق بأربانة" بـضـواحـي العـاصـمـة - والتي تقرر أن تكون لغة الدراسة فيها هي الفرنسية .

وهكذا يظهر جلياً أن الشرفي هو رمز للتغريب والفرنكفونية والعلمانية بكل أبعادها الخطيرة عـلـى الـبـلاد والـعـبـاد، مـن اجـتـثـاث البلاد من هويتها الإسلامية والعربية والزج بها في متاهات الضياع والتبعية الثقافية للغرب عموماً ولفرنسا خصوصاً .

ورغم المعارضة الشديدة التي أبداها بـعـض الـمثقفين والجامعيين لتولي الشرفي وزارة التربية وصدور كتاب "لا أريدك وزيراً" الذي فضح حقيقة الشرفي التغريبية واحترازات العديد من الأطراف فإن الشرفي تسلل إلى وزارة التربية شأنه شأن شراذم اليسار التي تسللت كذلك إلى مواقع السلطة دون أي موافقة شعبية، بـل فـي تـحـد واضـح لإرادة الشـعـب الرافض لهذه الطغمة العلمانية العميلة ، التي أخذت على عاتقها القيام بدور قذر قد لا يقــل قـذارة عن دور المبشرين المسيحيين الممهدين لدخول الاستعمار للعديد من البلدان .

وتـولـى الـشـرفـي الوزارة فكان البيان الضجة الذي وقعه الشيخ عبد الفتاح مورو في أكتوبر 1989م والذي دعا فيه إلى عدم الاستخفاف بقيم الإسلام وضرورة إقالة الشرفي ، ثم كانت حملة حتى بـعـض الـيـسـاريين والقوميين الذين يعون حقيقة الشرفي ونادوا بضرورة الجلاء الثقافي كما حصل الجلاء الـزراعـي مـن قـبـل . ولـكـن الدعم الكبير الذي كان يلقاه الشرفي خاصة من فرنسا التي تدخلت مباشرة بتعيينه حال دون حصول أي تغيير في الوضع ، بل إن الشرفي ركز قدميه في الوزارة وبدأ في تنفيذ مشروعه التخريبي الذي أطلق عليه مشروع "إصلاح التعليم" .

2- الأبعاد الحقيقية لمشروع "إصلاح التعليم ":

إن مــن الـمعلوم أن برامج التعليم ومناهجه التي سارت عليها الأجيال التونسية طيلة عهد حكم الطاغـيـة بورقيبة قد وضعها الفرنسي"ديـبـاس" الذي كـلـفـه بورقـيـبة بوضع برامج التعليم منذ الستينات فأشار "ديباس" بإغلاق الجامعة الزيتونية بحجة توحـد الـمـنـاهج التعليمـيـة وبتركيز اللغة

الفرنسية كلغة أساسية للتعليم سواء كان في مجال العلوم الصحية أو العلـــوم الإنـسـانـيـة، أمــا الـلـغـة العربية فإنها تدرس كلغة ثانية كغيرها من اللغات الأجنبية، وظل الأمر كذلك حتى سقط بورقيبة وتولى الشرفي وزارة التربية .

ورغم هذا المنحى التغريبي الخالص في مناهج التعليم، لاحـظـت الأطــراف الفـرنكفـونـيـة الـعـلـمـانية أنه لم يحقق الأهداف المرجوة من اجتثاث هوية الأمة وتغريبها بالكامل بل إن النتائج كانت عكسية إذ ظهرت التيارات التأصيلية الإسلامية المناهضة لسياسة التغريب ، ولعل الــدور الذي قامت به الحركة الإسلامية في مواجهة بورقيبة جعلت التيار التغريبي يأخذ علـى عاتقه مواصلة سياسة التغريب بل تجديد وسائل هذه السياسة وإعطائها دفعاً جديداً لعلها تحد من المد الإسلامي المتنامي ، وفي هذا الإطار يتنزل مشروع الشرفي لإصلاح التعليم فكان إطلاق شعارات :

* التفتح على الثقافات الأجنبية .
* وامتلاك لغة العلم والتكنولوجيا .
* وترسيخ التفكير النقدي .
* ونشر قيم التسامح والتآخي ونبذ التطرف والتعصب .

وغيرها من الشعارات البراقة التي هي في الحقيقة كلمات حق أريد بها باطل .

قال الله تعالى : ((أَلَمْ تَرَ إلَى الَذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْراً وأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ البَوَارِ))
[إبراهيم 28] .

وإذا كان المجال لا يتسع للرد على هذه التوجهات فإنه لا بأس من التعريج بسرعة على الخلفية الحقيقية لهذه الشعارات وما أريد بها من قبل أصحابها ،أما التفتح على الثقافات الأجنبية فالمقصود به أساساً الانفتاح اللا مشروط على ثقافة الرجل الأبيض ، والقبول بها دون احـتـرازات أو تحفـظ عـلـى أي جـانـب مـنهـمـا رغم ما تزخر به من نقائض ظهرت نتائجها الملموسة على الساحة الاجتماعية ، وما أفرزته من انتشار للجريمة والإدمان على المخدرات والأمراض الجنسية والنفسية ، وتفكك أسري وغير ذلك من الأخطار الاجتماعية التي تشكل تهديداً جدياً على المجتمعات الغربية أكـثـر مــن تهديد الحروب الأهلية أو الكونية . ورغم ذلك فإن دعوة الشرفي صريحة في التبشير بهذه الثقافة الداخلية ، والتي بغض الطرف عن كل نقائصها فإنها تبقى ذات خصوصية معينة لا تتفق إلا مع البيئة التي نشأت فيها .

أمــا امـتـلاك لغة العلم والتكنولوجيا فإن هذه الدعوة أريد لها بالأساس التمهيد إلى إعادة تبوء اللـغـة الفرنسية المكانة التي كانت عليها في مطلع الستينات من ناحية ، ومن ناحية ثانية السعي إلـى إعادة نشر وترسيخ القيم الغربية ذلك

أن اللغة في علاقة عضوية بالتفكير ولعل ما أشارت إلـيـه جريدة الفجر عن الملاحظات حول بعض ما ورد في الكتب الدراسية باللغة الفرنسية فـي بـعـض الفصول الدراسية خير دليل ومن ذلك صدور خارطة فلسطين المحتلة في بعض الكـتـب تـحـت اسم "إسرائيل" دون أي إشارة إلى فلسطين أو ما ورد من نصوص للقراءة بالفرنسية وما فـيـهــا من وصف مشين للمسلمين وتسميتهم بمحمد بالنسبة للرجال وكل النساء بفاطمة وذلك من بـاب الاحـتـقــار والاستخفاف بالمسلمين وغيرها من الأمثلة التي لا تحصى .
قال الله تعالى : ((أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ ورَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِداً فِيهَا ذَلِكَ الخِزْيُ العَظِيمُ)) [التوبة 63] .
أما بالنسبة لترسيخ التفكير النقدي وروح التسامح ونبذ التطرف والتعصب فإن المغزى من هذه الدعوة لا يخفى على أحد ، فهي تهدف استباحة المقدسات والثوابت ، وتشجيع مرضى القلوب على التعرض لها بالنقد والتجريح بدون علم وعن جهل بل عن قصد ونية سيئة مبيتة ، والتعرض لكل من يحاول الدفاع عن أصول الدين وشرائعه ووصفه بالتطرف والتعصب وعدم القبول بالرأي المخالف ، وهذا أمر خطير وخطب جليل لما يؤدي إليه من طعن وتشكيك في قيم الأمة ومقدساتها التي يراد بها أن تصبح محل خلاف وجدال لا محل اتفاق وإجماع ، وبذلك تدك حصون الأمة ويسهل غزوها ثقافياً وعقائدياً وقيمياً .
قال الله تعالى : ((وإذْ يَمْكُرُ بِكَ الَذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ويَمْكُرُونَ ويَمْكُرُ اللَّهُ واللَّهُ خَيْرُ المَاكِرِينَ)) [الأنفال 30] .
هذه عجالة عن الخلفية الحقيقية لمشروع الشرفي "لإصلاح التعليم" الذي لم يتجه إلى المشاكل والعوائق الحقيقية في المناهج التعليمية السابقة ، التي أدت بالبلاد إلى أزمة تعليمية خطيرة مثل كثرة المنقطعين عن التعليم في مختلف المراحل التعليمية ، وأزمة البحث العلمي الذي هو أقرب إلى العدم منه إلى الوجود ، وأزمة التوجيه الجامعي والخريجين وغيرها من المشاكل الهيكلية التي تنخر النظام التعليمي ككل .

3- تغيير برامج التربية الإسلامية - مثال -:

لقد كان يطلق على الشرفي من قبل بعض المثقفين - قبل وبعد تعيينه في الوزارة - أنه وزير صاحب مشروع ، بمعنى أنه صاحب أهداف خاصة به يريد تحقيقها من خلال وصوله إلى الوزارة ، فهو ليس وزير تنفيذ فقط . وعلى هذا الأساس لا غرابة أن نجد أول ما قام به الشرفي في "إصلاح التعليم" هو تغيير برامج التربية الإسلامية ، وذلك لسبب وحيد وهو أن هذه البرامج - رغم كل الاحترازات حولها - فيها مسحة إسلامية يقف وراءها جملة من الأساتذة المـخـلـصـيـن الـذيــن وضـعـوها منذ عهد بورقيبة فكانت حملة مركزة على هذه البرامج، وصفت فيها بشتى النعوت التي تنم عن موقف التيار التغريبي

من الإسلام ككل، وليس من هذه البرامج فقط، فهذه البرامج في تصورهم سبب في تخريج جيل متطرف عنيف بسبب دراسته لمفهوم الجهاد في الإسلام ، فكان التغيير هو أول خطوة قام بها الشرفي دون استشارة الأساتذة المدرسين للمادة ، ولا لجنة متابعة البرامج في الوزارة التي أقيل رئيسها الشيخ محمد بن إبراهيم الأستاذ في الجـامـعــة الزيتونية وإمام جامع الفتح بالعاصمة دون سابق إعلام ، ووقع الاعتماد في إعداد البرامـــج الجديدة على من يسمون بجماعة اليسار الإسلامي من حيث وقع اختيار رئيسها حميدة الـنـيـفـــر مستشاراً خاصاً للشرفي للشئون الدينية .

قــال الله تـعـالـى: ((الْمـُـنَـافِقُونَ والْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ ويَنْهَوْنَ عَنِ المَعْرُوفِ ويَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إنَّ المُنَافِقِينَ هُمُ الفَاسِقُونَ)) [التوبة 67] .

فـكـانـت البرامج الجديدة مختلفة تماماً بل مناقضة للأولى على مستوى الأهداف والمنهج، فأهـــداف هذه البرامج حسب ما ورد عنهم تتمثل في ترسيخ روح التآخي والتسامح لدى التلمـيـذ وذلك من خلال الوقوف على مقاصد الإسلام الداعية للمحبة والتيسير في الدين ، أما المنهـج فـي التدريس فهو يعتمد على اجتناب التلقين حتى لا يقع التعسف على عقل الطفل بل لا بد من الاعتماد على الطريقة الحوارية الاستنتاجية .

فالملاحظ بصورة جـلـية من أهداف هذه البرامج أنها تعميمية لا يمكن للتلميذ أن يعرف من خلالها حتى الـضــــــــروري من عقائد الإسلام وشرائعه فكيف يمكن الحديث عن مقاصد الإسلام دون معرفة أحكامه التفصيلية المؤدية للمقاصد الإسلامية، ولـكــن دعــــوة هؤلاء الضالين - ممن يسمون أنفسهم بالتيار الإسلامي الذين ينادون بالفهم المقاصدي للإسلام - هي ضرب للإسلام نفسه. أما منهج التدريس فهو في ظاهره إيجابي ولكن المقصود بــه هـو تهـمـيـش المادة ونفي التحصيل العلمي للتلميذ من دراستها فكيف يمكن أن نعتمد الطريقة الحواريـــة في تدريس الأحكام الشرعية ونجتنب تلقينها للطفل بحجة عدم التعسف على عقله ؟ فـمـــن ينادي بهذا الرأي لا يمكن أن يكون تصوره تعليم الأطفال الإسلام وأحكامه تعسفاً لا بد من تخليصهم منه .

وعـمــومـاً جاءت البرامج الجديدة فارغة من كل محتوى ، ضحلة في قيمتها العلمية فمثلاً على ذلك فـي برامج الصف الثاني تقرر تدريس الصلاة فنجد أن نصف الدروس المخصصة لهذا المبحث تتحدث عن جامع الزيتونة وتاريخ جامع الأزهر وغيرها من المساجد ، وليس المقصود من ذلك إبراز دور هذه المساجد التاريخي في نشر الإسلام ودورها في نشر الإسلام ودورها العـلـمــي المستمر عبر القرون ؛ بل القصد من إدراجها هو تهميش مبحث الصلاة حتى لا تتوفر فرصــة حقيقية للتلميذ ويتعلمها على أسس صحيحة ، وهذا ما لاحظه جل الزملاء الأساتذة المدرسين لهذه المادة .

قال الله تعالى : ((وقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وإن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الجِبَالُ)) [إبراهيم 46] .
وبذلك يظهر أن تـغـيـيـر بـرامــج التربية الإسلامية أبرز مثال على الحرب المعلنة من قبل الشرفي ومشروعه التغريبي على هوية الأمة الإسلامية وعقيدتها وقيمها .
قال الله تعالى : ((ولِلَّهِ العِزَّةُ ولِرَسُولِهِ ولِلْمُؤْمِنِينَ ولَكِنَّ المُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ)) [المنافقون 8].

الهوامش:

*- نخالف الكاتب الفاضل في قوله : "قبل أن تحصل الردة وتسقط البلاد.. الخ" فنظام بن علي هو نظام بورقيبة ، وما جرى من تغيير في أسلوب التعامل إنما هو تكتيك تقتضيه طـبـيـعـــة (الاستلام والتسليم بين طاغية خبيث هرم إلى طاغية آخر شاب من زبانيته وتربى على عينيه، لذلك لم نفرح بتلك المبشرات السطحية التي قدم بها الجنرال بن علي بها نفسه . هل هي التجربة الأولى في الانقلابات العسكرية في بلادنا ؟ وهل نزل هذا الطاغية الصغير من المريخ ؟!

- التحرير -

@مشاهدات في بلاد البخاري

د. يحيى اليحيى

كان هذا العام أول اختراق لـلـسور الحديدي الذي فرضته الشيوعية على أهل بلاد ما وراء النهر - الجمهوريات السوفيتية - الذيـن ظل حالهم مجهولاً لأكثر من سبعين عاماً ، ذاق المسلمون هناك ألواناً من البؤس والاضـطـهـاد ومحاولة طمس الهوية الإسلامية . وقد زرت تلك البلاد ببعثة من الجامعة الإسلامية وكــان لـي فـيـهـا انطـبـاعات ومشاهدات أحببت تسجيلها .
وسيكون محور الحديث حول النقاط التالية :
1 - عالم مجهول أرضاً وتاريخاً .
2 - الشيوعية وطمس الهوية الإسلامية .
\3 - صمود المسلمين وتصديهم للإلحاد .
4 - مشاهدات تسر المسلمين .
5 - لنكن صورة طيبة للإسلام .
6 - إن كنتم تألمون فإنهم يألمون كما تألمون !
7 - عمن نأخذ أخبارهم .
8 - حاجة المسلمين هناك .
9 - وصية المسافر .

1- عالم جهلناه أرضاً وتاريخاً :

ربط الإسلام بين أتباعه برباط وثيق ، مبناه على التراحم والمحبة والتآلف "فمن كان مؤمناً وجبت موالاته من أي صنف كان ، ومن كان كافراً وجبت معاداته من أي صنف كان . قال تعالى : ((إنَّمَا ولِيُّكُمُ اللَّهُ ورَسُولُهُ والَّذِينَ آمَنُوا الَذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ ويُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وهُمْ رَاكِعُونَ *ومَن يَتَوَلَّ اللَّهَ ورَسُولَهُ والَّذِينَ آمَنُوا فَإنَّ حِــزْبَ اللَّهِ هُــمُ الـغَــالِـبُــونَ)) [المائدة 55]"(1) .

قــال ابـن القـيـم : "الـمواساة للمؤمنين أنواع : مواساة بالمال ، ومواساة بالجاه ، ومواساة بالبدن بالخدمة، ومواساة بالنصيحة والإرشاد، ومواساة بالدعاء والاستغفار لهم ، ومواساة بالتوجع لهم . وعلى قدر الإيمان تكون هذه المواساة. فكلما ضعف الإيمان ضعفت المواساة ، وكلما قوي قويت. وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أعظم الناس مواساة لأصحابه بذلك كله ، فلأتباعه من المواساة بحسب اتباعهم له"(2) .

فحيثما كان هناك مسلم وجب على المسلمين أن يساعدوه وأن يذبوا عنه، ولــكـن الناظر في حالــة الـمسلمين اليوم يجد أن المستعمر قد نجح في زرع الفرقة بينهم ، ووضع شـعــارات وروابط أخــرى تسببت فـي تكـتـلات وطـنـية أو لغوية، أو غيرها ، حتى أصبح كثير من المسلمين لا يعنيه في قليل أو كثير ما يقع لإخــوانــه الذين في خارج قطره ، ويقول : مالي ولهم وما صلتي بأهل هذه البلاد أو تلك ! فأين نـحــن من قول الله تعالى : ((إنَّمَا المُؤْمِنُونَ إخْوَةٌ)) [الحجرات 10] ، وقوله ((أَذِلَّةٍ عَلَى المُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الكَافِرِينَ)) [المائدة 54] ، وأين نحن من قول الله تعالى يصف أصحاب محمد - صلى الله عليه وسلم - ((أَذِلَّةٍ عَلَى المُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الكَافِرِينَ)) [الفتح 29] ، بل أين نحن من قول النبي - صلى الله عليه وسلم - : "المسلم للمسلم كالبنيان يشد بعضه بعضاً" وشبك بين أصابعه .

إن الكفار أمة واحدة يوالي بعضهم بعضاً ، وإن المؤمنين إذا لم يتحدوا ويوالي بعضهم بعضاً فسيحل الفساد الكبير والفتن العظيمة ، ((والَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وفَسَادٌ كَبِيرٌ)) [الأنفال 73] . لو نظرنا إلى حالتنا اليوم لوجدنا أننا لم نعط إخواننا حقهم بل - بالعبارة الصريحة - بخسناهم جميع حقوقهم، حـتـى فـي الأمـــور الشكلـية فلم تتسع صدورنا لهم ولا في الخرائط الجغرافية ، فقد وضعنا اسم المستعمر بدلاً من اسمهم ، وإن شئت فارجع إلى الخرائط الجغرافية الكبيرة أو الصغيرة فهل ستجد المدن الإسلامـيـة ، فـضلاً عن الدول الإسلامية في الاتحاد السوفييتي ؟ لا ، إنك ستجد بالخط العريض على تلك القارة (الاتحاد السوفييتي) أما مناطق المسلمين ، ودولهم ، وأراضيهم ، ومدنهم التاريخية التي ينتمي إليها الكثير من علمائنا فلا تجد لها ذكراً في الخرائط، ولقد تعبت كثيراً في الخرائط الجغرافية

لعلي أحدد موقع مدينة بخارى، أو سمرقند ، أو نسا، أو خوجند ، فلم أهتد لذلك ، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على الوصاية التي فرضت على أمة محمد - صلى الله عليه وسلم - في تعليمها وإعلامها .
وإذا كان الكثير يجهل مواقع المسلمين هناك ؛ فما بالك بالتاريخ ؟! فالجهل به عام ، ولذا فإني سأذكر نبذة عن تاريخ وجغرافية هذه البلاد .
لقد غزا المسلمون بلاد أذربيجان من هذه المنطقة في خلافة أمير المؤمنين عمر أبن الخطاب - رضي الله عنه - على يد حذيفة بن اليمان - رضي الله عنه - ، وفي سنة خمس وخمسين للهجرة عبر سعيد بن عثمان بن عفان - رضي الله عنهما - نهر جيحون إلى بخارى فصالحه أهلها ، ثم عبر إلى سمرقند فصالحه أهلها أيضاً ، ولكن لم تلبث إلا قليلاً حتى نقضت العهد بعد ذلك ، ولم تخضع هذه الديار للإسلام تماماً إلا في عهد الوليد بن عبد الملك ، على يد القائد الشجاع "قتيبة بن مسلم الباهلي" الذي أرسى قواعد الإسلام في بلاد ما وراء النهر ، ما بين سنتي سبع وثمانين وأربع وتسعين للهجرة .
ومن ذلك التاريخ أصبحت تلك البقاع دياراً إسلامية خاضعة بأكملها لدين الله - عز وجل- .
وفي القرن السابع الهجري دخل التتار الإسلام ، فخضعت جميع مناطق ما يسمى اليوم بالاتحاد السوفييتي ، حتى موسكو نفسها قد بقيت في ظل الإسلام أكثر من قرنين . وبعد سقوط القسطنطينية في يد المسلمين تحول النصارى إلى روسيا ، فدخل الروس في النصرانية وأصبحت معقلاً لهم ، ثم قاموا بشن حروب شرسة على المسلمين بقيادة إيفان الثالث ، سنة خمس وثمانين وثمانمائة للهجرة حتى سقطت موسكو ، ثم جاء حفيده إيفان الرهيب فقام بإبادة للمسلمين حتى أباد مدناً كاملة بأسرها ، ثم بدأ الروس النصارى يزحفون على آسيا الوسطى فسقطت "طاشقند" عاصمة أوزبكستان - حالياً - سنة 1282 هـ ، ثم سقطت سمرقند سنة 1290 هـ ، ثم سقطت بخارى بأيديهم سنة 1291 هـ ، ثم سقطت عشق أباد وبلاد التركمان .
ذاق المسلمون في تلك الفترة - تحت حكم القياصرة - أبشع ألوان الذل والاضطهاد والاحتقار والابتزاز لأموالهم ، ثم قامت الثورة البلشفية الشيوعية سنة 1917 م ، فقام الشيوعيون بغزو بلاد المسلمين واحدة تلو الأخرى حتى سيطروا على تلك البقاع كلها في أقل من عشرين عاماً .
ويقدر عدد سكان السوفييت بأكثر من 240 مليون نسمة ، معظمهم من النصارى أما نسبة المسلمين فقد اضطرب الكتاب عن النسب السكانية اضطراباً كبيراً، وذلك الاضطراب راجع إلى انتمائهم ، فمثلاً الأمم المتحدة والنصارى يرون أن نسبة المسلمين لا تزيد عن 10% ، بينما المسلمون يرون أنهم يزيدون على 30% والوسط في ذلك - وهو الذي اتضح لكثير من زوار تلك البلاد - أن نسبة المسلمين تصل إلى 25% فالمسلمون ما بين 60-

80 مليون نسمة . هذا العدد الهائل من المسلمين رزح تحت نير الشيوعية أكثر من سـبـعـيـن عـاماً ، وهم في عزلة تامة عن إخوانهم لا يعرفون عنهم شيئاً البتة ، بل إنهم في عداد المجهولـين ، أين نحن من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان يدعو لأناس حبسوا في مكة - يعــدون عـلـى أصـابـع اليد الواحدة - ويَقنتُ لهم في صلاته سائلاً الله أن يفك أسرهم "اللهم أنج عياش بن ربيعة اللهم أنج الوليد بن الوليد" يتفقد النبي - صلى الله عليه وسلم - شخصاً أو شخصين فينص عليهم بالدعاء ، والذين أمامنا ليسوا ألفاً ولا ألفين بل ملايين لا نعرف عنهم شيئاً ، فضلاً عن أن ندعو لهم دعاء عاماً ، فضلاً عن أن نخصهم بالدعاء .

ونحن فـي عـالـم التجهيل المضروب على المسلمين عامة في بلاد الله كلها لا نعلم أن عدد الجمهوريات والـدول التي أكـثـريتهـا إسلامية ، أو سابقاً كانت كلها إسلامية تزيد على أربع عشرة جمهورية ، ولو سألت واحدا منا ما هي ؟ فالمثقف يذكر لك واحدة أو اثنتين، لا أقول مدينة بل دولة كاملة .

كـمـا أن للمسلمـين وجوداً في البلاد النصرانية ، مثل روسيا وأوكرانيا وجورجيا وغيرها ، حتى قيل : إن نسبة المسلمين فيها تقدر بـ 10% .

وهناك غير الجمهوريات الست المشهورة جمهوريات تقع جنوب غرب جبال أورال، وهي بشكيريا وعاصمتها أوفا ، وتتاريا وعاصمتها قازان ، وقازان هذه كانت عاصمة القـطــاع الذهبي الذي خضعت له موسكو للحكم الإسلامي أكثر من قرنين ، وأدمورت ، وماريا ، وجوفاش ، وموردوف . أما شمال القوقاز فتقع فيه أربع جمهوريات إسلامية وهي : داغستان وعاصمتها محج قلعة، الشوشان والانقوش وعاصمتها غروزني،قبرديا، قارتشاي، وهم الشراكسة . وهناك جمهورية أذربجيان، وتـقــع وراء القوقاز بين بحر قزوين والبحر الأسود ، ويزيد سكانها على ستة ملايين ، يمثل الـمـسـلـمـون فيها سبعين بالمائة 70% ، ونسبة أهل السنة فيها تزيد على 20% ، وهذه نسبة طيبة وإن كــان الـرافـضــة يحاولون التقليل من هذه النسبة والتجهيل بأهل السنة في تلك البلاد .

أما من ناحية الموارد فإن الأقاليم الإسلامية تملك أعظم الثروات والموارد فيما يسمى سابقاً بالاتحاد السوفييتي ، فعلى سبيل المثال : فإن 50% من نفط الاتحاد السوفييتي يوجد في الأقـالـيـم الإسلامية ، كما يوجد فيها معادن اليورانيوم والفوسفات والرصاص والقصدير ، كما أن فيها ثروة كبيرة من القطن والصوف والحرير .

وقد كانت هذه الموارد كلها تسخر لخدمة الشيوعية،وتستغل لنشر الإلحاد وضرب المسلمين داخل البلاد وخارجها ، وما بلاد الأفغان عنا ببعيد .

ولـذا أبــدى الغـربيـون قلقهم إزاء استقلال الجمهوريات الإسلامية ، ،ويرى المحللون أن الغرب لن يتهاون أبداً إزاء القوة الكامنة في الجمهوريات

الإسلامية ، فقد حذر ساسته من مخاطر ما أسموه القـنبلة الإسلامية في مواجهة القوميات الأخرى ، فجمهورية كزخستان مثلاً تعتبر الدولة الـثـالـثـة من حيث امتلاك الأسلحة النووية ، إذ أنها تأتي بعد روسيا مباشرة، واستقلالها يعني أن العالم الإسلامي قد تمكن بالفعل من امتلاك القنبلة النووية ، ولهذا ثارت مخاوف الغرب فأبدت ألمانيا مثلاً على لسان وزير خارجيتها بأن كزخـسـتان تمـلــك أسلحة نووية تفوق الأسلحة في كل من بريطانيا وفرنسا، وإن احـتـفـظـت بـهــذه الترسـانـة مـن الأسلحة النووية ستصبح بذلك أول دولة إسلامية نووية ولها القدرة على تطويرها .

2- الشيوعية ومسخ الهوية الإسلامية :

اسـتـخـدمـت الشـيـوعـيـة جميع الوسائل والأساليب في محاولة طمس الهوية الإسلامية وتحويل المسلمين إلى ملاحدة ، فسلكت جميع الطرق وسخرت جميع قواها في هذا الغرض ، حتى ظن من لا يعرف ماهية هذا الدين بأنه لن يبقى في هذه البلاد من يقول : الله ، الله . ومن وسائلهم :

1- الاستيلاء على كافة الـمـسـاجد وتحويلها إلى متاحف ومستودعات وملاعب ومراقص وخمارات ومستشفيات الخ ، - ولا أقول هذا نقلاً عن أحد بل وقوفاً عليها - في تركستان وحدها تم إغلاق أكثر من ستة وعـشــرين ألف مسجد ، وجرى تحويل أكثر من سبعمائة مسجد في بلاد التتار ، وخمسمائة مسجد في بلاد القفقاز إلى مواخير وأندية وإسطبلات .

2- إغلاق جميع المدارس الإسلامية وفعلوا بها كما فعلوا بالمساجد ، وكان قبل الثورة في بلاد بخارى وحدها أكثر من ثلاثمائة وسـتـيـن مدرسة ، وقد فنيت تلك المدارس ولم يبق فيها قائماً الآن سوى خمسين مدرسة ، وقد جـعـلـت متاحــف ومسارح وغير ذلك . وقد اطلعت بنفسي على مدارس في (خوارزم) وفي مدينة (خيوة) ودخلت مدرسة كبيرة مكتوب على بابها "مدرسة محمد أمين خان " بنيت سنة 1275 هـ وبـجـانـبـهــا عـدة مدارس ، وللمدرسة منائر جميلة وقد كتب في مقدمة المدرسة "قد أوصل الله تعالى اختتام بـنـاء هذه المدرسة التي هي خير المدارس في العالم سنة 1275 هـ بأمر سلطان الزمان الغازي محـمـد أمين بهادر" وهذه المدرسة ذات بناء شامخ عجيب ، وجمال يأخذ بالألباب ، ولما دخلت بوابتها ما بين منارتين وجدت عند الباب امرأة وراء مكتب فسألناها فقالت : هذا فندق ، ثم دخلنا فرأينا سلماً ينزل تحت الأرض فسألت عن ذلك ، فقيل هذه خمارة ، والموسيقى تضرب بين جنباتها ، ثم خرجت من المدرسة إلى مدرسة مجاورة فإذا فيها دار للسينما . وهــذه الـمدينة ما إن تدخلها إلا وتطالعك المدارس المشيدة ومنائرها العالية الجميلة وهي تبكي أطلالها وعمارها وروادها .

3- إحـراق وإغـراق لجميع المصاحف والكتب ، وقد حدثني الثقات أن الشيوعيين جمعوا كأمثال الجبال من الكتب في بخارى وسمرقند وأحرقوها .

4- منع اقتناء أي مصحف أو كتاب ، مما اضطر كثيراً من الناس إلى إحراقها أو دفنها في الجدران ، أو حفـظـهـا على خوف وقلق عظيمين ، لأن من وجد في حوزته كتاباً أو ما في حكمه مما يمت إلى العلم الشرعي أو اللغة العربية بصلة فهو معرض للمحاسبة ، ولهذا لا تكاد تجد الآن عند كـثـيـر من المسلمين اليوم مصحف ولا كتاب بل لا تجد في مساجدهم ذلك أيضاً .
5- مـن وسـائـل الـشـيـوعـيـيـن في طمس الهوية الإسلامية نشر وطباعة الكتب الإلحادية والأدب الإلحادي .
6- تـسـهيل الانضمام إلى الحزب الشيوعي والتمتع بامتيازاته .
7- تزيـيـف الـتاريخ الإسلامي الخاص بالمنطقة ، فقد حاولوا تجهيل الأبناء جميعاً في أن هذه البلاد تمت إلـى الإسـلام بصـلـة ، وإن ذكروا فتوحات المسلمين فإنهم يذكرونها على سبيل الغزو والسيطرة والاستعمار وإذلال شـعـوب الـمـنـطـقـة ، ولـذلـك كثيراً ما يوجد في شــوارعـهـم رســوم وصور المكافحين الملاحدة الذين قاموا بمكافحة الإسلام فـي الـقـديـم والحديث .
8- فرض اللغة الروســيــة ومحاربة الكتابة العربية ، وهذا شامل لجميع نواحي الحياة ، فاللغة الروسية مفروضة رسمـيــاً في المدارس والمعاملات وجميع الدوائر الحكومية ، حتى المزارع والمتاجر لأنها كلها تحت سـيـطـرة الدولة فلا يمكن التخاطب على الأقل كتابياً إلا بالروسية ، حتى أصبح كثير من المسلمين لا يستطيع أن يكتب بلغته الأصلية التي يتحدث بها .
9- منع النساء من الحجاب الشرعي ، وقد أقيمت الاحتفالات الرسمية الإلزامية لحرق الحجاب .
10- تسخير نساء المسلمين في الأعمال المهنية الشاقة ، فحيثما توجهت نحو أي مزرعة تجد نساء المسلمين يمسكن بالمساحي لحراثة أرض الدولة ، أما الشوارع فإن تنظيفها موكل إلى عجائز المسلمين .
11- تهجير الكفار إلى بلاد المسلمين ، ليمتزجوا بهم وكذا العكس ، ولذا تجد الروس والكوريين وغيرهم قد سكنوا في أحياء المسلمين وقراهم ، وكل هذا مبالغة في طمس الهوية الإسلامية ، فأصبحت تجد المسلم وبجواره الروسي النصراني أو الملحد والكوري الوثني ، فالبلاد التي جل سكانها مسلمون هجروا منهم إلى بلاد النصارى ثم نقلوا من النصارى إليهم .
12- تهجير أقوام بأكملهم مثل مسلمي القرم ، فقد قام ستالين بقتل عدد كبير منهم بالجوع ، ثم هجر ما يزيد على مائتى ألف إلى مناطق نائية في عربات الماشية فمات أكثرهم في منتصف الطريق ، ولم يبق في ديارهم واحد .
13- من مبالغة الشيوعية في طمس معالم الإسلام عند الناشئة تغيير أسماء المسلمين ، حيث تجد اسم المسلم المتعارف عليه عند أهله وأقاربه غير الاسم الرسمي في الاثباتات الرسمية وهو الاسم المعتبر عند الدولة .

وضع أصنامهم في كل حي وشارع وناحية ، فما تدخل شارعاً ولا محلة ولا قرية إلا وتجد تمثال لينين أو غيره على منصة مرتفعة .
14- تسمية الأحياء والمدن والقرى والشوارع والمدارس وغير ذلك بأسماء رموز الحزب ، وهذا شامل لجميع المدن والقرى في طول البلاد وعرضها ، فمثلاً يقولون : قرية لينين ، حي ماركس ، شارع ستالين وكذا ، فأصبح الطفل ينشأ لا يعرف سوى لينين وستالين وماركس وغيرهم من دهاقنة الإلحاد(3) .
15- كتابة عبارات إلحادية عند نهاية المدن والقرى بدلاً مما نكتبه نحن "تصحبكم السلامة أو الله يحفظكم" فيكتبون لينين معكم ، لينين يحفظكم .
16- التعليم الإلحادي الإجباري لجميع الجنسين ، ولمدة عشر سنوات ، يتعلم الطفل فيها إنكار الخالق وتفسير التاريخ تفسيراً مادياً ، ثم تؤكد ذلك وسائل الإعلام المقروءة والمسموعة والمرئية .
فالمسلم ملزم أن يدخل ولده وابنته المدرسة ، ولمدة عشر سنوات ، فيدخل الولد وعمره ست سنوات ويتخرج وعمره ست عشرة سنة ، فترة المراهقة كلها يعيشها بين الشيوعيين ، وبعد التخرج يختطف إلى سيبيريا للتجنيد الإجباري مدة عامين ، كل هذه المدة في يد الملاحدة ليس في يد أبيه وأمه ، وإذا رجع إلى البيت فلا مصحف ولا كتاب ، إنما التلفزيون والمجلة التي تعلم الكفر والإلحاد فماذا ستكون النتيجة ؟!
17- منع جميع شعائر الإسلام ، فكل ما يخطر بالبال من شعائر هذا الدين فاعلم أنه محظور في تلك الجمهوريات إبان الشيوعية .
18- تسخير برامج الإعلام كلها لغرس الإلحاد والكفر ، فللتلفزيون في ثلاث قنوات : قناتان تبثان من موسكو وقناة تبث من نفس الجمهورية ، فالمسلم حيثما وجه التلفزيون فهو بين هذه القنوات لا يتعداها .
19- الحظر على المسلمين من اتصالهم بالخارج ، ومنع المسلمين في الخارج من الاتصال بإخوانهم في الداخل ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل إن هذا السور الحديدي الذي ضرب على المسلمين هناك شمل حتى الاستماع إلى القنوات الإذاعية سوى الإذاعات المحلية ، فلقد شاهدت جهاز الراديو في الفندق - وهو يمثل الشيوعية في قمة تعصبها - وليس فيه الجزء الذي تبحث فيه عن المحطات ، كما هو عندنا ، وإنما هو عبارة عن مفتاح واحد تضغط عليه المرة الأولى فتخرج لك إذاعة موسكو ، والثانية الإذاعة المحلية ، فليس هناك مجال لأن تبحث عن محطة أخرى .
وحتى بعد أن سمح بأجهزة الراديو المتطورة سلط التشويش على المحطات الأخرى .
20- القضاء على العلماء والمشايخ ، وقد حدثني أستاذ في طشقند أن أباه كان يصلي بالناس ويعلمهم ، فاطلعت عليه المخابرات - الكي.جي.بي - حين خروجه لصلاة الفجر وبعد مساءلته وكان صريحاً معهم ، فقدروا صراحته

وقالوا : سنخفف عنك العقوبة ونشفع لك عند مديرنا ، وفعلاً خففت عنه العقوبة فأعطي مسافة من الشارع يقوم بتنظيفها ورشها بالماء كل يوم قبل صلاة الفجر ، يقول : حتى أصيب والدي بالشلل من شدة البرد حيث كان عمره يناهز السبعين عاماً وهذا عمله اليومي . هذه أخف عقوبة عند الشيوعيين لعلماء الإسلام ودعاته .

21- إجبار الطلاب على الإفطار في رمضان ، ورغم هذه الحرب الشرسة ضد الإسلام فقد كانت الشيوعية تخشى من بقاء بعض المسلمين على إسلامهم وتمسكهم به ، فحدثني أحد الثقات قائلاً : لما كنا ندرس في المدارس كان مدير المدرسة في صباح كل يوم من رمضان يمر بنا ، فيجبرنا على الشرب حتى في الأيام الشاتية ، وهذا الإجبار خاص بأولاد المسلمين .

22- إبادة المدن المحافظة على دينها مثل : مدينة خوقند في وادي فرغانة ، فقد أبيدت هذه المدينة مرتين : في عهد القياصرة وفي عهد الشيوعيين البلاشفة .

23- اسـتخـدام الإرهاب عن طريق المخابرات في التجسس على الناس في بيوتهم ، ووضع مراكز التفـتيش عند مدخل كل مدينة وقرية ، حتى إنه ليخيل إليك - إذا قدمت إحدى القرى - أنك دخـلـت جمـهــوريـة أخرى فالفنادق مثلاً لا تقبلك نزيلاً عندها وليس معك تأشيرة لدخول هذه المدينة أو القرية ، ولقد دخلنا مدينة خوقند من وادي فرعانة في ساعة متأخرة من الليل فقصدنا الفندق وأبرزنا له الجوازات فلم يقبلنا ، فقلنا له ولم؟ قال: ليس معكم تأشيرة لدخول المدينة . فقلنا أوليست من مدن أزبكستان ونحن نحمل تأشيرة لدخول الدولة فلم يقبل .

فالمطلوب من الزائر أن يأخذ تأشيرة لجميع المدن والقرى!!

24- ربـط الـنــاس على مخـتـلــف طبقاتهم ومستوياتهم بالدولة عن طريق الاقتصاد الذي سيطروا على جميع وسائله وطرقه، حيث تـسـيـطــر الدولة على جميع المزارع والمحلات التجارية، والمصانع، وسيارات النقل والأجرة، والعمائر الكبيرة، وجـمـيـع الثروات . ولا يملك الناس سوى بيوتهم وسياراتهم الخاصة.

25- أثـنــاء الـحــرب الـعـالـمـيـة الثانية وبعدها حاولت الدولة أن تظهر للوفود الرسمية التسامح، فأذنت بإقامة مسجد في كــل ولاية لا يتسع لأكثر من خمسمائة مصلٍ ، ولكن لا يـجـــوز أن يدخلها من عمره أقل من خمسين عاماً. وليت الأمر انتهى عند ذلك! بـل إن الدولـة هي التي تعين الإمام ويـشـتـرط أن يـكـون من الحزب أو من المخابرات ، وعليه أن يكـتب التقارير عن كل داخل إلى المسجد. وأنشــأت كذلك إدارات دينية تحت إشرافها، ومدرستين هما: مدرسة مير عرب في بخارى ومعهد البخاري في طشقند، وكـان الـمـسؤولون عنها من فجار القوم، وقـد حـدثـنـي مــن درس فـي

مــدرســـة مير عرب في بخارى أيام الشيوعية، أنـــه كـــان يدخل عليه المدرس ولما يصح بعد من الخمر (4).
حيال ذلك نشأت أجيال لا تعرف من الإسلام إلا اسمه، ولا من القرآن حتى رسمه، حيث تجد عدداً كبيراً من المسلمين لم يسبق له أن رأى المصحف .
وبعد هذا العرض المجمل عن خطط الشيوعية في طمس نور الإسلام من قلوب الناس، حـيـث لا مصحف ولا كتاب ، ولا عالم ولا داعية ، ولا مسجد ولا مدرسة ؛ هل نظن أنه بقي فـي هــذه الديار من يقول الله الله..؟ من يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويقيم الصلاة ويؤتي الزكاة؟ الجواب في الفقرة القادمة إن شاء الله .

»يتبع«

الهوامش :

1- مجموع الفتاوى 128 .
2- الفوائد 222 .
3- هذه عادة الطغاة في كل زمن يريدون تخليد انفسهم وأسلافهم بإطلاق أسمائهم على الأماكن ومسح آثار من يخالفهم الرأي ، ويعكر على تسلطهم .
- التحرير -
4- هل يصف الكاتب ما كان عند السوفييت ؛ أم ما هو جارٍ في كثير من البلاد العربية إلى اليوم ؟! لا ندري .
- التحرير -

@من الرجعية إلى الأصولية (2)

محمد بن حامد الأحمري

طالب عربي مسلم يسكن في جلاسجو إحـــدى مدن الشمال البريطاني . وفي أول شهر له في المدينة ، أدرك زوجته المخاضُ ، واستدعـى الممـــرضات من المستشفى ، وحاولت إحداهن الحديث مع زوجته التي لم تكن تعرف الإنجليزيـــة ، وظـنـــت أن الـــزوج لا يعرف اللغة الإنجليزية أيضاً . ثم ولد للمرأة ولد ورفعته إحداهن وقالت : "عدو جديـــد" ، نعم أصولي جديد يولد ، مصنف منذ أول ثواني الميلاد عدواً لبريطانيا وليس فقط أصولياً ، لقد كانت هذه الممرضة في وعي تام لقضية الإسلام والنصرانية والصراع العقائدي والتاريخـي ، كانت تعبر عن ثقافتها بصوت عال مسموع لصاحبتها بلا تلكؤ ولا مجاملة ولا غبش فـي التصـور كالذي يعانيه أكثر المسلمين اليوم ، حيث يلوكون كلمات الأخوة الإنسانية والصداقة . إنهـا كلمات للاستهلاك

الإعلامي وملء أسماع الجهلة والأتباع في العالم الثالث فقط ، أما هم فـيـدركــون حقيقة الموقف تماماً ، وتعرف الممرضة هذه السياسة الواقعية ، وتعيش بها وليست مـشـغـولة بصراخ الإعلام الاستهلاكي . إن المسلمين يحبون أن يسود العالم السلام لكن لماذا هم لا يفكرون به .
عندما قالت الممرضة ما قالت نهرها والد الطفل، وأنكر عليها هذا الموقف والعداء من الطفل الوليد ، فاحمر وجهها وارتبكت جداً واعتذرت، ووصــل الخـبـر لإدارة المستشفى واعتذر منهم أكثر من شخص . ولكن هذه الحقيقة تفرض نفسها بلا غطاء . وكأني بوالده يقول : يا بـنـي لقد سبقوا الشيطان إليك قبل أن يغمزك منذراً بالصراع أبد الحياة، صــراع الحـق والباطل ، هؤلاء سبقوا وليس بغمزة شيطانية لا نراها ولكن بكلمة واضحة لنا نحن الثلاثة فقط أنـت لا تعي مـا قـالت هذه الممرضة ، وأمك لا تفهم لغتهم ، ولكن بقية حياتك - إن أعطاك الله العمر - ستكون شرحاً لما أجملته لك الممرضة .
وهذه بداية الطريق صريحة واضحة بلا تمويه،فهل يا ترى ستعيش حياتك بهذا الأسلوب ، وهل تراك تفهم العالم الذي تعيش فيه ؛ أم سيسلبونك عقلك ، ثم تستميت في سبيلهم والدفاع عنهم وعن فكرهم وتقول عن والدك : أصولي متخلف ، وأنت متحضر تفهم العالم ويفهمك . إن براءتك وطفولتك لم تشفع لك ولن تشـفـع لأمتك مجاملاتها الطويلة ووعيها المنقوص . وقبل أن أسمعك الأذان يا بني أسمعوك الموقف العدائي المشهود .
هذه مقدمة فرضت نفسها بين يدي الحديث عن كتاب: "الـتـهـديـد الإسلامي أسطورة أم حقيقة"(1) . والذي يرى فيه كاتبه "جون أسبوسيتو" خطورة الانطـبـاع الذي يسيطر على تصرفات السياسيين الغربيين تجاه الإسلام ، إذ يختصرونه إلى أن الاســلام هــو الخميني وصدام ، وهم بنظر مفكريهم أصولية بروتستانتية حيث أن استعمال كلمة أصوليـة بمعناها التاريخي المركوز في الذاكرة الفكرية الأمريكية له أيضاً أبعاده من كراهية سيطرة الـمتدينين على الحياة الأمريكية وتحريمهم الخمور والتضييق على الناس (2) .
ويرى عــدد مــن المفكرين عندهم أنه لا يمكن التعامل مع الإسلام بالإقناع الفكري والحوار الحضاري - كــمــا حدث مع عديد من الشعوب والحضارات التي التقت مع الحضارات الغربية وذابت في الثقافة الغربية الجديدة - وهذا الإسلام المقاوم يثبت يوماً بعد الآخر أنه لا يمكن أن يـتـجــاوب مــع الديمقراطية والرأسمالية بسهولة ، لأن موقف الأصولية شديد جداً تجاه الدول الغربية ، وهم القطاع الرافض للغرب في العالم الإسلامي ، لأن أعمق أذى أصاب كرامة الأمة المسلمة من الغربيين ، "إن آخر فكرة مستوردة لقيت قبولاً بين المسلمين كانت العلمانية التي مثلتهـا القومية العربية في عهد عبد الناصر وأحزاب البعث في سوريا ولبنان والعراق ، وكان عاقبتها هزيمة 1967 م"(3) .

ويقول أسبوستيو إن الديمقراطية التي يراد فرضها فرضاً يمكن أن تتحول إلى عنف أشد من عنف أي أصولية ، فإن الأفكار الجميلة إذا أكره عليها الناس أو استخدمت بعنف وتدمير للآخرين حتى يتقبلوها؛ فلن يشفع لها الواقع العنيف أن توصف بالتقدمية والاعتدال،ولن يرحـب بهــا أحد . كما أن الفيتناميين لم يروا في الأمريكان رسل ديمقراطية ولا دعــــاة للمساواة والحرية . إذ كيف تحررني بالقتل والتدمير وترغمني على الاقتناع بفكرة أخرى بالحروب والترويع والاستغلال ؟!

والمؤلف لا يرى أسلوب المواجهة بالقوة مع الأصولية هو الحل المناسب لما يحدث في العالم الإسلامي، بل - كعادة الـمـسـتـشرقين - يطالب بالإغواء والاحتواء والمداهنة وعدم الإثارة وألا يحكم الماضي في الحياة الـمـعـاصــرة الـيـوم . وأيضاً فإن النماذج التي يطيب للساسة والمفكرين والإعلاميين الأمريكان استخدامها كـنـمـاذج للتطــرف الإسلامي تغـفـل جماهير أخرى ودعوات وحركات إسلامية واسعة لا ترى في الغرب شراً كما ترى النماذج المقدمة على أنها هي العالم الإسلامي . ويدعو إلى دراسة الداخل ، ودراسة الحركات الإسلامية وقادتها دون التسرع بأحكام لا تخدم المصلحة الغربية والإسلامية ، والمؤلف لـه عـلاقات كثيرة مع بعض قيادات الأوساط الإسلامية ويتحدث عن بعضهم عن سابق معرفة،وبخاصة أنــه كانت له علاقة مع أستاذه إسماعيل الفاروقي في جامعة تمبل . ويرى خطأً معـقــولاً يمكن الـتـفـاهـم مـعـه والـوصـول إلى حلول وسط في القضايا التي يختلف فيها الإسلام عن النصرانية ، ولا يرى أن تطرح القـضـيـة إلا بأسـلــوب الحـديـث عــن الـتـسامح البارز في الـديـانتين والدبلوماسية المدركة ليست استخدام الدين سياسياً في الغرب ولا فـي الـعـالـم الإسلامي .

وإذا تعامل المسلمون بهذا الأسلوب الحضاري الذي يراه صحيحاً،هل يعني هذا أن يتعامل مـعــه الـغـربيون بنفس الأسلوب الذي يحكمه التعاون والتفاهم والحوار والـتـسـامـح بيـن الأديان ؟ لا ، لأن الواقع الذي يتحركون من خلاله الصليبية وتاريخها وحياة المواجهات الدائمة ، ولعل الأنموذج الذي ذكره المؤلف في بداية الكتاب عن حوار متخيل يدور بين زعيم مسلم متدين وبين زعيم غربي ، فيرون أن المسلم يتحدث من خلال الصراع الإسلامي النصراني والمواجهة التاريخية الدائرة إلى اليوم (4) واقتسام العالم بين المسلمين والنصارى ولا يملك خـيـالــه الخروج من هذه الخيالات . والذي يؤيد ذلك في ذاكرة الانسان المسلم الحوادث المتتالية إلـى الـيـوم . وبمقدار ما يدل على رسوخ هذا التخيل عند المسلمين فإنه يدل أيضاً على رسوخه أكثر عندهم .

ويرى أن محاولة الوقوف موقفاً معتدلاً مما يحدث في البلدان التي دمرت فيها المشاريع الديمقراطية يجعل الشعوب المسلمة تتجاوب مع الغرب ، ولكن الدعم الحكومي الغربي للنظام الجزائري والتونسي اللذين صادرا

البدايات الديمقراطية(5) تؤكدان عداء الغرب للديمقراطية في العالم الإسلامي . في الوقت الذي تدمر الشعوب المسلمة بحجة إيجاد حياة ديمقراطية فيها . وذلك نفاق ينعكس أثره على رأي المسلمين في قضية حرياتهم وموقف الغرب منها .

وكما يحلم البعض - كما يقول المؤلف - بإيجاد نظام دولي ، فإن ملايين في شمال أفريقيا والشرق الأوسط ووسط آسيا يحلمون أيضاً بالحرية السياسية والديمقراطية . ولهذا يرى أنه يجب اعتبار هذه الملايين تحدياً لا تهديداً ، وحركة الإحياء الإسلامي في جوانب منها حركة اجتماعية تبحث عن إيجاد المجتمع الإسلامي الأصيل وليست القضية قضية دولة إسلامية عند البعض، والبـعـض الآخــر يرى أنه لا يوجد المجتمع الإسلامي إلا بالدولة الإسلامية ، وعلى أي حال فكلا الاتجاهين ليسا بالضرورة ضد الغرب وضد أمريكا . ويرى أنهم دعاة لإصلاح الأوضاع في بلدانهم ولـيـسوا ضد المصالح الأمريكية ، وأنه لا بد لهم أن يفهموا بشكل أفضل ، وألا يحاكمهم الغرب إلـى خـيـالاتــه عنهم ، بل بإمكان الغرب أن يفهمهم وهم يتطلعون إلى الغرب ليحقق لهم الكثير من آمالـهـم . وهذه فرصة خيالية للغرب في التعامل معهم وهم يقدمون على تحديد طريقهم في المـسـتـقـبـل(6) ؛ وبالـتـالي للتأثير في مستقبل الإسلاميين عن صداقة لا عن عداء.

وآراء المـؤلـف فـي خــلاصته السابقة لكتابه كآراء سابقيه المحترفين والذين ما فتئوا يرون المراوغة والإغواء . وفي نفـس الوقت يمارسون أسلوب المنفذ للحل العسكري المباشر ويتولون الإرشاد في مجاهل العالم الإسلامي عند حاجة الجيوش الغربية إلى ذلك ، كما سبق مراراً لا تحصى من قبل المستشرقـيـنٍ مـن قديم . ولا نحاكم نية المؤلف وهو الذي يذرع الولايات المتحدة متحدثاً في كل ناد عن الـعـالـم الإســلامي الــذي يمكن وعيه وإدراك هويته ويُدل عليهم بمعرفته وجهلهم . ولكن ما هو الواقع الذي جــرى تـاريـخـاً بالأمس ويجري اليوم سياسة .

إن ذوي القرار لا يقفون عند فذلكة الكتاب والأدباء ، ولا عند المثقفين الذين يغلب عليهم الـجـبـن - كـمــا يـرون هــــم - ولكن "القادة" يأخذون الأمر بأيديهم ويختارون القناعة التاريخية العميقة: "الحـرب" هي الحل مع العالم الإسلامي الذي قويه لا يعقل ، وغنيه لا يعي، وفقيرة لا يعمل، وقدرته مهاجرة أو معزولة عن التيار اليومي.

ولهذا فـتـدمـيــر القوي المجنون ، وتجهيل الغني وسلب وعيه ، وإذلال الفقير ، وتأكيد الهيمنة على الجميع، وتأسيس الفرقة والتنازع والوطنية والقبلية؛ هــذه أنـجــع الحلول وليس ما يراه المستشرقون الجدد .

مــا يـحــــــدث اليوم في طول العالم الإسلامي وعرضه هو الموقف العملي من الأصولية قبل حدوثها، فإن الفقر والجهل والمجاعة والصراع القبلي

والحكم الفاسد لأمثال بري كل ذلك يدعو للبحث عن حل؛ وقد كان للدعوة الإسلامية السبق المباشر في هذا، فأقبل الناس على الاتحاد الإسلامي الصومالي وبدأ بالسيطرة على بعض المناطق. وهنـــا هبت القوى الغربية للحد من خطر الإسلام في الصومال الذي يهدد القرن الأفريقي كله وربمــا استطاع الاتصال بمناطق أخرى في أفريقيا فيشكل معها قوة إسلامية مخيفة في المستقبل.. وهذا يعوق ما خطط له مركز كارتر في القرن الأفريقي وما يأملون من مستقبل حاسم لأثيوبيا، وعـــادت أحلام الاستعمار القديم ونصارى البرتغال الذين قضوا - كما يرون - على الإسلام في الأنــدلس ، وكانت الرحلة حول إفريقيا وسموا عملهم هذا طريق الرجاء الصالح للهيمنة على الإسـلام من المشرق ، كما دحروه في الأندلس غرباً . واليوم استعادوا نفس الاسم في الصومال عملية "إعـــادة الرجاء الصالح" ولا يعلم أحد أين سيقف إحياء الرجاء الصالح الذي قد لا يقف عند حـد الصومال ، فربما يرون ضرورة البحث عن إنشاء مناطق آمنة للنصارى في البلدان الإسلامية (القريبة) أو القضاء على الأصولية المنتشرة في أفـريقيا التي يرونها قارة المستقبل للنصرانية، وليس للإسلام فيها حق. وعـشـــــرات الألـوف تذهب بأحدث الأسلحة إلى الصومال لمكافحة المجاعة ، هل هذه الأعداد والـعـــدة تدفع المجاعة أم تصنعها ، ومتى كانت القواعد العسكرية بحرية وبرية والاحتلال يقاوم المجاعة. وقـد كـانـت هيئة الأمم المتحدة تعوق وصول الغذاء والدواء من قبل كما قال مبعوثها الرسمى "سحنون".

والـغـريـب فـي تعاملهم مع الصومال أنهم بادروا إلى خطر محتمل لا واقع مشاهد ، وذلك لأنهم تـعـــودوا أن يسددوا الصفعة الأولى على حين غرة ، ولا يكاد عدوهم يدرك مصدر الصفعة حتى تأتيه الثانية على الجانب الآخر دون إمهال .

يرفعون شـعــــار التهديد بالأصولية والتخويف من الإسلام ، ويرفعون شعار حماية حقوق الإنسان ، وها هم يقتلعون شعباً بكامله في أوربا من أرضه ودياره ، لا لذنب جناه ، سوى أنه يدين بالإسلام . بحجة أنه سيكون في المستقبل بؤرة للأصولية وتهديداً لأوربا . وكذلك ما نراه من سلـبـيـتـهـم أمــــام إســرائـيـل في تعاملها الشرس مع هذه الأعداد الكبيرة من الفلسطينيين الذين تقتلعهم من أرضهم ومن بـيـن أظـهـــر عائلاتهم وأطفالهم ، وتلقي بهم تحت الثلج والمطر . ويتفرج العالم المتحضر على مأساتهم، ويـشـاهـد غـطـرسـة إسرائيل وعنهجيتها التي لا يقف في وجهها أحد : لا مسلمون ، ولا غيرهم ، ولا هيئة أمم ، ولا نظام عالمي جديد ، ولا دعاة حقوق إنسان .

آن لـنــا أن نعرف خداع العبارات ونفاق الدعاية السياسية حيث السر ضد العلن . وشعار الأصوليـة والتخويف منها يبطن الحرب على الشعوب المسلمة

والقضاء على قوتها وعزتها واستقلالها. الـتـخـويـف والـتـرويـع الــذي يهزون به قلوب الحكام والمحكومين في عالمنا الإسلامي الواسع من خطر الأصولية والــذي لا يقـصــــد منه إلا إخفاء الأخطار الحقيقية الآتية من قبلهم هم أنفسهم . ليس أخطر على الأمم من عـــدو يأتيها بصورة منقذ حريص غيور عليها ، وليس همه إلا مزيداً من الإضعاف والإنهاك حتى تكون لقمة سائغة له .

الهوامش :

1-J.Esposito .The Islamic Threat ، مطابع جامعة اكسفورد ، نيويورك ، 1992

2- علماً أن الولايات المتحدة وقعت تحت أيدي المتطرفين اليمينيين منذ عهد كارتر إلى نهاية عهد بوش . ولن يذهب الرئيس الجديد بعيداً عن سياسة سابقيه فيما يبدو .

3- فوكوياما ، نهاية التاريخ ، فري برس ، 1992 ، نيويورك ، ص 236-237 .

4- ص 6 .

5- ص 211-212 .

6- ص 212 .

منتدى القراء

الصحوة الإسلامية والتمكين

محمد الخريف

إن أي كيان أو دعوة أو تنظيم يستمد قـوتـه الأساسية الدافعة إلى التمكين والاستخلاف من العقيدة أو المبدأ الذي يقوم على أساسه ويـتـبـنـاه ويدعـو إلـيـه ، فكلما كانت هذه العقيدة واضحة قريبة من فطرة الناس وإدراكهم العقلي؛كلما كان ذلك كفيلاً بتوفير عوامل النجاح والتقدم لها، وجعل الناس يستقبلونها بالقبول والاتباع عن قناعة راسخة يبذلون في سبيلها الغالي والنفيس، وهــذا لا يـوجـد إلا فـي العقيدة الإسلامية المنزلة من لديه ربنا -سبحانه وتعالى- ، فهي الدين الوحيد الباقي على وجه الأرض السالم من التحريف بحفظ الله له، وهذا هو سر رسوخه وانتشاره رغم الحرب الضروس الموجهة إليه من قبل أعدائه،وتخاذل أتباعه عن نصرته والالتزام بتعاليمه .
ومـتـى ما خالط الإيمان بهذه القضية سويداء القلوب وخامر التصديق بها مخ العقول ، فإن ذلك يمـثـل مصدر قوة عظيمة ودفع ذاتي للدعوة الإسلامية في مواجهة التحديات وتجاوز العقبات والعوائق، فـي سـبـيـل الـتمكين لهذا الدين في أرض الله . إلا أن سنة الله الماضية تقتضي بذل الأسباب ، وعدم الركون إلـى القـوة الذاتية لهذا الدين فحسب ، بل جعلها مصدر دفع مهم إلى الأمام

يعوض ويكمل جـوانب القـصـور ، ولو كان الأمر خلاف ذلك - حسبما يتصور الخرافيون والصوفيون - لما شرع الجهاد الـذي تـتطـاير فيه الرؤوس وتسيل الدماء لإعلاء كلمة الله، ومــن هــذا المـنـطـلـق يـجـدر بالقائمين على قيادة ركب الصحوة الإسلامية أن يدركوا هذه الحقيقة ، وأن لا تشغلهم بُنَيَّات الطريق عن أمور الدعوة الجسام ، ورعاية هذا الكيان والعمل على توفير مصادر القوة له، فـالـلـه قــدم الجهاد بالمال على الجهاد بالنفس ، ودعوتنا كلها جهاد لكن على مراحل تقتضيها المصلحة إلي أن ترقى إلى مرتبة الجهاد بالسنان وبذل الدم ، فإن القوة المادية كما قيل هي عـصــب الحـيـاة الدنيا وقوامها ، والضعيف فيها على مر العصور مقهور مسحوق لا يحسب له حساب إلا في ظل شرع الله حين يحكم ، ولسنا بهذا نطلب بجعل الدعوة شركة تجارية! لكنه الاعتماد على الذات بموارد ثابتة وهذا من القوة التي أمرنا الله بإعدادها لمواجهة الأعداء ونشر الدين ، والاستغناء عن مد يد الاستجداء ، مما يوفر للدعوة حرية التحرك ، واتخاذ الـقــرار دون ضغوط كابحة للنشاط ، إضافة ، ما توفره القوة المادية للدعوة من ثقل سياسي واجـتـماعي هـي بأمـس الـحـاجـة إلـيـه ، وقريباً منك أخي الكريم ، مثلاً حياً المنظمات الصهيونـيـة والنصرانية في العالم وما تـمـلـكـه مــن إمكانات ضخمة وفرت لها نوعاً من السيطرة على محاور ثلاثة مهمة هي (المال والتقنية والإعلام) حتى أصبحت ذات نفوذ مؤثر في مجرى الأحداث والقرارات السياسية الداخـلـيــة والخارجية للدول التي تعمل بها ، إضافة إلى نشاطاتها وبرامجها الهائلة ، حتى وصفت بالدول الخفية لعظم قوتها ونفوذها .

ولم يكن ليحصل لها هذا النفوذ والتمكن رغم فساد المنهج والانقطاع من حبل الله . لولا ما تملكه من إمكانات وتنظيم عملي، يـبـعـث الـحـسـرة في قلب المسلم الغيور لما يرى من حال الدعوة والأمة .

فحري بنا - ونحن حامـلـو الرسالة السماوية الخالدة - أن نأخذ بكافة الأسباب المشروعة في ديننا، وأن الـدعــوة الإسلامية بوضعها الراهن بعيدة عن اتباع هذا المنهج بشكل جاد ، فـهـي فـقـيـرة بالموارد الثابتة تعتمد على تبرعات الأخيار المتذبذبة ، بشكل يفقدها القدرة على وضع الموازنة والتخطيط للبرامج المستقبلية،إضافة لما تعانيه من ضعف البناء التنظيمي الذي يوحد الجهود ويستغل الطاقات، لاعتمادها على الجهود الفردية المبعثرة - باستثناء بعض الجمعيات الخيرية ذات الطابع الإغـاثـي - وهــذا يكـشـف الحاجة الملحة لإجراء الدراسات والبحوث العلمية لتقويم نشاط الدعوة وإيجاد البرامج والخطط المناسبة لتوجيه الأعمال وتقسيمها إلى كيانات متنوعة النشاط ذات شكل مؤسساتي ، يجري التنسيق بين أعمالها عبر القيادة الشرعية العليا .

صحيح أن الدعوة محـاصـرة ومقطوع عنها كل الموارد الرسمية في الجملة ، ولا يتوفر لها ولا إمكانات نادي رياضي ينمي العضلات !

لكن لا ينبغي الاستسلام للواقع ، وأبواب الفتح واسـعـة بعون الله . على أن لا يغـيب عن بالنا ونحن نبذل الجهد وتقدم الأسباب أن نتشـبـث بعنصر مهم ألا وهو التوكـل على الله والثقة بنصره وتأييده وعدم الانقطاع عنه بأسـبـابنا الضعيفة لكي نجـمــع بـيـن الحسنيين التوكل والعمل كما أمرنا الله سبحانه في سبيل تحقيق الهدف العظيم ألا وهو التمكين للأمة الإسلامية وإعادة العزة والريادة المسلوبة منها ، بعد هذا الضعف والهوان الذي طال ظلامه وادلهم غسقه، ونـكـاد نلـمـح فـجــراً وضــاء يلوح في الأفق بعد أن أوشك هذا الظلام على العسعسة ، ليسطع نور الإيمان كي يعم الأرض بالعدل والقسط بـعـدما ملئت ظلماً وجوراً ، ((واللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ ولَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ)) والله أعلم .

@الصفحة الأخيرة

قارة العنف والتعصب

محمد الحسيني

ألمانيا أكثر حواضر أوربا تقنية ومـدنـيـة يلفـها الرعب العنصري ، ويحيط بها الخوف من النازية الجديدة ، من شباب لم يعرفوا من النازية إلا شعار : "ألمانيا فوق الجميع" وطريقة هتلر في تحية الجماهير . ولم يشهد أحد منهم مـقـتـل عـشـرات الملايين في الحرب العالمية الثانية ذهبوا ضحية الفكر العنصري من الألمان وغيرهم . تعود اليوم النازية ، وتتجه نحو المسلمين الأتراك وغيرهم من الجاليات التي تعيش في ألمانيا، وقــد تـجـاوزت الحوادث في أقل من عام ألفي حادثة عنف قتل فيها سبعة عشر شخصاً منهم عائلة تـركـيـة . ويخـيـم رعب النازية الجديدة على الألمان، مما دعا المناوئين برئاسة رئيس الجمهورية إلى المشاركة في المظاهرات ضدهم.

ويرى المراقبون أن أوربا التي تحاول الوحدة يتهددها خطر العنصرية الذي قامت من أجله له مدراس وكتب وأفكار خالدة في ثقافتهم، حـيـث يـسـود القارة الأوربية الحقد العنصري اللاهب والكراهة المتبادلة . والحروب العنصرية والقومية هـي روح تـاريـخ أوربا، فحــرب المئة عام وحرب الأربعين عام ، والحرب العالمية الأولى والثانية كلها كان ميدانـهـا أوربا، وأكـثـر الشرور العنصرية في العالم مصدرها من هناك ، فهل تستطيع هذه الدول إيقاف هذا الخـطــر القادم ؟ وهل تستطيع الديمقراطية الألمانية إيقاف ذلك ؟ وهي التي جاءت بهتلر على أعناق الجماهير العاطلة التي رأته منقذها من البطالة، فأوجد لـلـعـاطـلـيـن الـعـمــل، وأخذهم إلى مصانع الأسلحة ثم إلى الجندية ثم إلى القبور .

بـقـي أن نـعـلـم - أن وقـــوع أوربــا تحت طائلة الحروب والأحقاد لا تعني دعوة الكسالى والسلبيين الممزقين إلى سيادة العالم ، وأن حركة العالم من حولنا لا تتأثر بالجموع الجاهلة الغافلة التي لا تعمل لقضية ، ولا يحـركهـا دين ، ولا تطمع في حياة عزيزة ، ولا في جنة عرضها السموات والأرض ، إذ الحقوق لا تهـدى ، والصراع والمدافعة سنة دائمة من سنن الله في الارض .

تمت بعون الله والحمد لله رب العالمين
